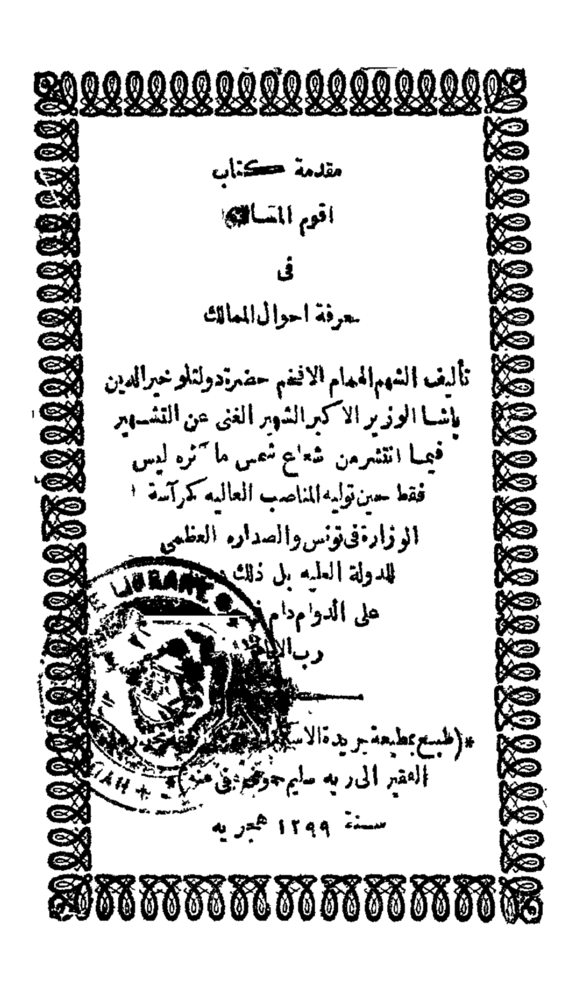


مقدمة كتاب

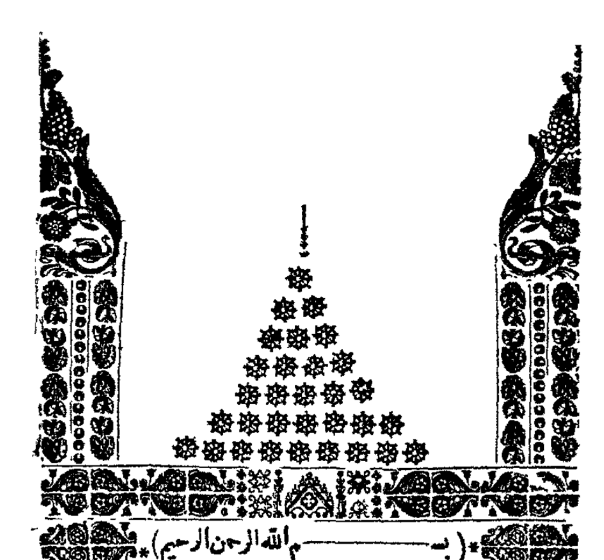
اقوم المسالك

في

معرفة احوال الممالك

تأليف الشهم الهمام الافخم حضرة دولتلو خير الدين
باشا الوزير الاكبر الشهير الغني عن التشهير
فيما انتشر من شعاع شمس مآثره ليس
فقط حين توليه المناصب العاليه كرآسة
الوزارة في تونس والصداره العظمى
للدولة العليه بل ذلك [illegible]
على الدوام دام [illegible]
رب الا[illegible]

*(طبع بمطبعة جريدة الاس[illegible]
الفقير الى ربه سليم حموي [illegible]
سنة ١٢٩٩ هجريه



سبحان من جعل من نتائج العدل العمران * وفضل بالعقل نوع الانسان * واهله به لحسن التدبير ومراتب العرفان * وامره بالتعاون على البر والتقوى دون الاثم والعدوان * أحمده وهو المحمود فى كل آن بكل لسان * واصلى على عبده سيدنا محمد المرسل بالكتاب والميزان * المنزل عليه ان الله يامر بالعدل والاحسان وعلى آله واصحابه حفاظ شريعته اللائقة بكل زمان * الدائرة احكامها على مركزى الايمان والامان * امابعد فيقول جامع هذه الورقات

الورقات * ارشدنى الله الى اقوم الطرقات * انى بعد ان تاملت تاملا طويلا * فى اسباب تقدم الامم وتأخرها جيلا فجيلا * مستندا فى ذلك لما امكن تصفحه من التواريخ الاسلامية والافرنجيه * مما حرره المولفون من الفريقين فيما كانت عليه وآلت اليه الامة الاسلامية وما سيؤل اليه امرها فى المستقبل * بمقتضى الشواهد التى قضت التجربة بان تقبل * التجأت الى الجزم بما لااظن عاقلا من رجال الاسلام يناقضه * او ينهض له دليل يعارضه * من انا اذا اعتبرنا تسابق الامم فى ميادين التمدن * وتحزب عزائمهم على فعل ماهو اعود نفعا واعون * لايتهيأ لنا ان نميز مايليق بنا * على قاعدة محكمة البنا * الا بمعرفة احوال من ليس من حزبنا * لاسيما من حف بنا وحل بقربنا * ثم اذا اعتبرنا ماحدث فى هذه الازمان * من الوسائط التى قربت تواصل الابدان والاذهان * لم نتوقف ان نتصور الدنيا بصورة بلدة متحده * تسكنها امم متعدده * حاجة بعضهم لبعض متأكده * وكل منهم وان كان فى مساعيه الخصوصية غريم نفسه * فهو بالنظر الى ماينجر بها من الفوائد العمومية مطلوب لسائر بنى جنسه * فمن لاحظ هذين الاعتبارين * اللذين لاتبقى المشاهدة فى صحتهما ادنى رين وكان بمقتضى ديانته من الدارين * ان الشريعة الاسلامية كافلة بمصالح الدارين * ضرورة ان التنظيم الدنيوى اساس متين * لاستقامة نظام الدين * يسوءه ان يرى بعض علماء الاسلام * الموكول لامانتهم مراعاة احوال الوقت فى تنزيل الاحكام * معرضين عن استكشاف الحوادث الداخليه * واذهانهم عن معرفة الخارجية

عليه * ولايخفى ان ذلك من أعظم العوائق * فن معرفة ما يجب اعتباره على الوجه اللائق * أفيحسن من ساسة الامة الجهل بامراضها * أو صرف الهمة الى اقتناء جواهر العلوم مجردة عن اعراضها * كأنه يسوغ الجهل بذلك من بعض رجال السياسه * والتجاهل من بعضهم رغبة فى اطلاق الرئاسه * فلذلك هجس ببالى * ما استذكيت لاجله ذبالى * من انى لو جمعت بعض ما استنتجته متذسنين باعمال الفكر والروية * مما شاهدته اثناء اسفارى للبلدان الاوروباويه * التى ارسلنى اليه بعض دوها الفخام الطود الرفيع الاسمى * والكهف المنيع الاحمى جناب ولى النعم * وزكى الاخلاق والشيم * من لم تزل عزائمه كاسمه صادقه * والسنة الايام بالثناء عليه ناطقه * لم يخل سعيى من فائده * خصوصا اذا صادف افئدة على حماية بيضة الاسلام متعاضده * واهم تلك الفوائد عندى * التى هى فى هذا التاليف مناط قصدى * تذكير العلماء الاعلام * بما يعينهم على معرفة ما يجب اعتباره من حوادث الايام * وايقاظ الغافلين من رجال السياسة وسائر الخواص والعموم * ببيان ما ينبغى ان تكون عليه التصرفات الداخلية والخارجيه * وذكر ما تتاكد معرفته من احوال الامم الافرنجيه * خصوصا من لهم بنا مزيد اختلاط * وشديد علقة وارتباط * مهما اوضحوا به من صرف الهمم * الى استيعاب احوال سائر الامم * واستسهالهم ذلك بطى مسافات الكرة الذى الحق شاسعها بالامم * فجمعت ما تيسر بعون الله من مستحدثاتهم المتعلقة بسياستى الاقتصاد والتنظيم * مع الاشارة الى ما كانوا عليه فى العهد القديم * وبيان الوسائل التى ترقوا بها فى سياسة العباد * الى الغاية

الغاية القصوى من عمران البلاد * كما اشرت الى ما كانت عليه امة الاسلام المشهود لها حتى من مورخي اروبا الاعيان * بسابقية التقدم فى مضمارى العرفان والعمران * وقت نفوذ الشريعة فى احوالها * ونسج سائر التصرفات بمنوالها * والغرض من ذكر الوسائل التي اوصلت الممالك الاوربا ويه * الى ما هي عليه من المنعه والسلطة الدنيويه * ان نتخير منها ما يكون بحالنا لائقا * ولنصوص شريعتنا مساعدا وموافقا * عسى ان نسترجع منه ما اخذ من ايدينا * ونخرج باستعماله من ورطات التفريط الموجود فينا * الى غير ذلك مما تتشوف اليه نفس الناظر فى هذا الموضوع * المحتوى من الملاحظات النقلية والعقلية على ما نشره بطى فصوله يضوع * وسميته اقوم المسالك * فى معرفة احوال الممالك * مرتبا له على مقدمة وكتابين يشتمل كل منهما على ابواب * وبهداية الله نستوضح مناهج الرشد والصواب * والجرى فى هذا المجال وان كان فوق طاقتى * لكن اغضاء الفضلاء مامول فى جنب فاقتى * وصدق النيه * كافل ان شاء الله تعالى ببلوغ الامنيه *

(المقدمه)

لما كان الباعث الحامل على الشيء متقدما عليه طبعا ناسب ان نقدمه وضعا ولم نكتف بالايماء فى الخطبة الى ما دعانا لجمع هذا التاليف بل رأينا من المهم ان نعود الى ايضاحه هنا ونبنى عليه ما اردنا ايراده فى المقدمه فنقول ان الباعث الاصلى على ذلك امران آيلان الى مقصد واحد احدهما اغراء ذوي الغيرة والحزم من رجال

السياسة والعلم بالتماس ما يمكنهم من الوسائل الموصلة الى حسن حال الامة الاسلامية وتنمية اسباب تمدنها بمثل توسيع دوائر العلوم والعرفان وتمهيد طرق الثروة من الزراعة والتجارة وترويج سائر الصناعات ونفي اسباب البطالة وأساس جميع ذلك حسن الامارة المتولد منه الامن المتولد منه الامل المتولد منه اتقان العمل المشاهد في الممالك الاوروباويه بالعيان وليس بعده بيان ثانيهما تحذير ذوي الغفلات من عوام المسلمين عن تماديهم في الاعراض عما يحمد من سيرة الغير الموافقة لشرعنا بمجرد ما انتقش في عقولهم من ان جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراتيب ينبغي ان يهجروتا ليفهم في ذلك يجب ان تنبذ ولاتذكر حتى انهم يشددون الانكار على من يستحسن شيأ منها وهذا على اطلاقه خطا محض فان الامر اذا كان صادرا من غيرنا وكان صوابا موافقا للادلة لاسيما اذا كاعليه واخذ من ايدينا فلا وجه لانكاره واهماله بل الواجب الحرص على استرجاعه واستعماله وكل متمسك بديانة وان كان يرى غيره ضالا في ديانته فذلك لايمنعه من الاقتداء به فيما يستحسن في نفسه من اعماله المتعلقة بالمصالح الدنيوية كما تفعله الامة الافرنجية فانهم مازالوا يقتدون بغيرهم في كل مايرونه حسنا من اعماله حتى بلغوا في استقامة نظام دنياهم الى ماهو مشاهد وشان الناقد البصير تمييز الحق بمسبار النظر في الشيء المعروض عليه قولا كان أو فعلا فان وجده صوابا قبله واتبعه سواء كان صاحبه من أهل الحق أو من غيرهم فليس بالرجال يعرف الحق بل بالحق تعرف الرجال والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها

ولما اشار سلمان الفارسي رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم بان عادة الفرس ان يطوقوا مدنهم بخندق حين يحاصرهم العدو اتقاء من هجومه عليهم اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم برايه وحفر خندقا للمدينة فى غزوة الاحزاب عمل فيه بنفسه ترغيبا للمسلمين وقال سيدنا على كرم الله وجهه لا تنظر الى من قال وانظر الى ما قال واذا ساغ للسلف الصالح اخذ مثل المنطق من غير أهل ملتهم وترجمته من لغة اليونان لما راوه من الالات النافعة حتى قال الغزالى من لا معرفة له بالمنطق لا يوثق بعلمه فاى مانع لنا اليوم من أخذ بعض المعارف التى نرى انفسنا محتاجين اليها غاية الاحتياج فى دفع المكائد وجلب الفوائد * وفى سنن المهتدين للعلامة الشيخ المواق المالكى مانصه ان مانهينا عنه من اعمال غيرنا هوما كان على خلاف مقتضى شرعنا اما مافعلوه على وفق الندب أو الايجاب او الاباحة فانا لا نتركه لاجل تعاطيهم اياه لان الشرع لم ينه عن التشبه بمن يفعل ما اذن الله فيه وفى حاشية الدر المختار للعلامة الشيخ محمد بن عابدين الحنفى مانصه ان صورة المشابهة فيما تعلق به صلاح العباد لا تضر على انا اذا تاملنا فى حالة هؤلاء المنكرين لما يستحسن من اعمال الافرنج نجدهم يتنعون من مجاراتهم فيما ينفع من التنظيمات ونتائجها ولا يمتنعون منها فيما يضرهم وذلك انا نراهم يتنافسون فى الملابس واثاث المساكن ونحوها من الضروريات وكذا الاسلحة وسائر اللوازم الحربية والحال ان جميع ذلك من اعمال الافرنج ولا يخفى ما يلحق الامة بذلك من الشين والخلل فى العمران وفى السياسة اما الشين فبالاحتياج للغير فى غالب الضروريات الدال على تاخر الامة فى

المعارف واما خلل العمران فبعدم انتفاع صناع البلاد باصطناع نتايجها الذى هو أصل مهم من اصول المكاسب ومصداق ذلك مانشاهده من ان صاحب الغنم منا ومستولد الحرير وزارع القطن مثلا يقضى تعب ذلك سنة كاملة ويبيع ماينتجه عمله للافرنجى بثمن يسير ثم يشتريه منه بعد اصطناعه فى مدة يسيرة باضعاف ماباعه به وبالجملة فليس لنا الآن من نتايج ارضنا الا قيمة موادها المجردة دون التطورات العملية التى هى منشا توفر الرغبات منا ومن غيرنا ثم اذا نظرنا الى مجموع مايخرج من المملكة وقايسناه بما يدخلها فان وجدناهما متقاربين خف الضرر واما اذا زادت قيمة الداخل على قيمة الخارج فحينئذ يتوقع الخراب لامحالة واما الخلل السياسى فان احتياج المملكة لغيرها مانع لاستقلالها وموهن لقوتها لاسيما اذا كان متعلق الاحتياج الضروريات الحربية التى لو يتيسر شراؤها زمن الصلح لايتيسر ذلك وقت الحرب ولو باضعاف القيمة ولا سبب لما ذكرناه الا تقدم الافرنج فى المعارف الناتجة عن التنظيمات المؤسسة على العدل والحرية فكيف يسوغ للعاقل حرمان نفسه مما هو مستحسن فى ذاته ويستسهل الامتناع عما به قوام نفعه بمجرد اوهام خيالية واحتياط فى غير محله ومما يحسن سوقه هنا قول بعض المؤلفين من الاوروباويين فى السياسات الحربية ان الممالك التى لاتنسج على منوال مجاوريها فيما يستحدثونه من الالات الحربية والتراتيب العسكرية يوشك ان تكون غنيمة لهم ولو بعد حين وخص التراتيب الحربية لانها موضوع كتابه والا فالواجب مجاراة الجار فى كل ماهو مظنة لتقدمه سواء كان من الامور العسكرية

أو

أومن غيرها ومايؤيدماقررناه قوله صلى الله عليه وسلم لعاصم بن ثابت من حديث من قاتل فليقاتل كما يقاتل و يوضح معناه ماتضمنته وصية الصديق لخالد بن الوليد رضى الله عنهما حين بعثه لقتال المرتدين فقال ياخالد عليك بتقوى الله والرفق بمن معك الى ان قال والخوف عند أهل اليمامة فاذا دخلت بلادهم فالحذر الحذر ثم اذا لاقيت القوم فقاتلهم بالسلاح الذى يقاتلونك به السهم للسهم والرمح للرمح والسيف للسيف قلت ولوادرك هذا الزمان لابدل ذلك بمدفع الششخان ومكحلة الابرة والسفينة المدرعة ونحوها من المخترعات التى تتوقف عليها المقاومة ولايحصل بدونها الاستعداد الواجب شرعا الذى يستلزم معرفة قوة المستعد له والسعى فى تهيئة مثلها أوخير منها ومعرفة الاسباب المحصلة له و بناء على ذلك يقال هنا هل يمكننا اليوم الحصول على الاستعداد المشار اليه بدون تقدم فى المعارف واسباب العمران المشاهدة عند غيرنا وهل يتيسر ذلك التقدم بدون اجراء تنظيمات سياسيه تناسب التنظيمات التى نشاهدها عند غيرنا فى التاسس على دعامتى العدل والحرية اللذين هما اصلان فى شريعتنا ولايخفى انهما ملاك القوة والاستقامة فى جميع الممالك ولما كان الغرض من هذا الكتاب لايتم الا ببيان احوال البلدان الاورباوية لزم ان نثنى العنان اليه مدرجين فى اثنائه مايناسب الامة الاسلامية فنقول ان الحالة الراهنة فى ممالك اوربا لم تكن ثابتة لها من قديم الزمان لانها كانت بعد هجوم البرابرة الشماليين وسقوط الدولة الرومانية سنة اربعمائة وست وسبعين مسيحية

ومن أهم أصولها وجوب المشورة التي أمر الله بها رسوله المعصوم صلى الله عليه وسلم مع استغنائه عنها بالوحي الالهي وبما أودع الله فيه من الكمالات فاداك الاحكمة أن تصير سنة واجبة على الحكام بعده قال ابن العربي المشاورة أصل في الدين وسنة الله في العالمين وهي حق على عامة الخليقة من الرسول الى أقل الخلق (ومن) كلام علي رضي الله عنه لاصواب مع ترك المشاورة ومن الاصول المجمع عليها وجوب تغيير المنكر على كل مسلم بالغ عالم بالمنكرات (وقال) حجة الاسلام الغزالي الخلفاء وملوك الاسلام يحبون الرد عليهم ولو كانوا على المنابر فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يخطب أيها الناس من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه فقام له رجل وقال والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا فقال الحمد لله الذي جعل في هذه الامة من يقوم اعوجاج عمر بسيفه ولاشك ان مثل هذا الامام العادل الشديد في حماية الدين وحقوق الخلافة لولم ير مساغا من الشريعة لذلك الكلام مع ما فيه من الشدة ما حمد الله عليه بل كان الواجب رده وزجر قائله (وروى) الغزالي أيضا في كتاب (الامر بالمعروف والنهي عن المنكر) من الاحياء ان معاوية حبس عطاء الناس فقام اليه أبو مسلم الخولاني فقال انه ليس من كدك ولا من كد أبيك ولا من كد أمك فقال معاوية بعد ما سكن غضبه بالوضوء صدق أبو مسلم انه ليس من كدي ولا من كد أبي فهلموا الى عطائكم قلت لولا التغيير المشار اليه ما استقام للبشر ملك لان الوازع ضروري لبقاء النوع الانساني ولو ترك ذلك الوازع يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد لم تظهر ثمرة وجوب نصبه على الامة لبقاء الاهمال بحاله فلابد للوازع المذكور من وازع له يقف عنده اما شرع سماوي

اوسياسة

أو سياسة معقولة وكل منهما لا يدافع عن حقوقه ان انتهكت فلذلك
وجب على علماء الامة وأعيان رجالها تغيير المنكرات
ونصب الاورباويون المجالس وحرروا المطابع فالمغيرون للمنكر في الامة
الاسلامية تتقيهم الملوك كما تتقي ملوك أوربا المجالس وآراء العامة
الناشئة عنها وعن حرية المطابع ومقصود الفريقين واحد وهو
الاحتساب على الدولة لتكون سيرتها مستقيمة وان اختلفت الطرق
الموصلة الى ذلك وما ذكرناه أشار اليه ابن خلدون في فصل الامامة من
مقدمته حيث قال ان الملك لما كان عبارة عن المجتمع الضروري
للبشر ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار القوة الغضبية
المركبة في الانسان كانت أحكام صاحبه في الغالب حائدة عن الحق
مجحفة بمن تحته من الخلق لحمله اياهم في الغالب على ما ليس في طوقهم من
شهواته فتعسر طاعته لذلك وتجيء العصبية المفضية الى الهرج والقتل
فوجب ان يرجع في ذلك الى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة
وينقادون الى أحكامها كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الامم واذا خلت
الدولة عن مثل هذه السياسة لم يستقم أمرها ولا يتم استيلاؤها فاذا كانت
هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت
سياسة عقلية واذا كان فرضها من الله تعالى بشارع يقررها كانت
سياسة دينية نافعة في الدنيا والآخرة انتهى

(قلت) والنفع المذكور انما يكون تاما ببقائها محترمة بصونها
والذب عن حوزتها بعمل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر كما أشرنا
اليه هذا وانا لا ننكر امكان أن يوجد في الملوك من يحسن تصرفه
في المملكة بدون مشورة أهل الحل والعقد بحمله حب الانصاف على

الاستعانة بالوزير العارف النصوح فيما يشكل عليه من المصالح لكن يكون ذلك من النادر الذى لا يعتبر لاستناده الى أوصاف قلما تجتمع فى انسان وعلى فرض اجتماعها ودوامها له تزول بزواله وجب علينا أن نجزم بأن مشاركة أهل الحل والعقد للملوك فى كليات السياسة مع جعل المسؤلية فى ادارة المملكة على الوزراء المباشرين لها بمقتضى قوانين مضبوطة مراعى فيها حال المملكة اجلب لخيرها واحفظ له

وبيان ذلك ان حالة الملوك بمقتضى الطبيعة البشرية لا تخرج عن صور ثلاث لان الواحد منهم اما ان يكون كامل المعرفة والمحبة لخير الوطن قادرا على اجراء المصالح بمراعاة الاصلح أو يكون كامل المعرفة ولكن له اغراض وشهوات خصوصية تصده عن مراعاة المصالح العمومية أو يكون ناقص المعرفة ضعيف المباشرة ومثل هذه الصور الثلاث يعتبر فى الوزير المباشر ولا يخفى ان لزوم المشورة ومسئولية الوزراء فى الصورة الاولى لا يعطل كامل المعرفة عن مقصده الحسن بل يعينه حيث ان اراء الجميع متعاضدة على المصلحة كما انه يسهل دوام الملك فى عائلته ولو كانوا من ماصدقات الصورتين الاخيرتين الواضح فيهما تأكد المشورة والمسئولية لوجوب المعارضة فى الثانية والاعانة فى الثالثة فبذلك يستقيم حال المملكة ولو كان الوالى أسير الشهوات أو ضعيف الراى كما قال المترجم لتاريخ ستور دمل الانكليزى ان رفعة شان الامة الانكليزية بلغت الغاية فى مدة الملك جورج الثالث الذى كان مجنونا وماذاك الا بمشاركة اهل الحل والعقد ومسئولية الوزراء لهم وقد يسبق الى بعض الاذهان الضعيفة ان تكليف من تحسن سيرته من الوزراء يجبر به خلل الصورتين الاخيرتين بحيث لا يحتاج لاهل الحل

والعقد وهو ظاهر السقوط لان تقديم الوزير للمباشرة وتأخيره عنها بيد الملك ولا يظن ان الملك يقدم من يعلم انه مخالفة مخالفة معتبرة وعلى فرض تقديمه وسيره سيرة مستحسنة فانا نرى ان حال الوزير دائر بين امرين لانه اما ان يوافق الملك وحاشيته على اغراضهم وشهواتهم مرجحا بذلك حظ نفسه . وضرر المملكة في هاته الحالة لا يكاد يخفى . واما ان يخالفهم ويأمر من تحته من المتوظفين بما تقتضيه مصلحة البلاد وحينئذ فمن اين له هذا الحق وبأى ظهير يستظهر على تلك المخالفة خصوصا اذا لم تكن هناك شريعة نافذة تحميه من تحزب حساده الذين غاية آمالهم اضراره وتعطيل تصرفاته الحسنة المقالة لفوائدهم بكل وجه امكنهم ولو بتنفيذ اذنه على غير مقصوده او تأخيره عن الوقت المناسب ليظهر الخلل ويكثر الزلل او باخفاء جليل حسناته واشهار حقير سيئاته لتغيير القلوب عليه ومن دعاء علي رضي الله عنه اللهم احفظني من عدو يرعاني ان رأى مني حسنة دسها وان رأى سيئة أشهرها ثم اذا خيب الله آمالهم بنجاح مسعى الوزير المشار اليه في ادارة المملكة رجعوا الى سلوك طريق الوشاية به عند الملك بأن يقولوا انه استبد عليك ولم يبق لك من الملك غير الاسم الى غير ذلك من أنباء الفساق التي قد تروج على العاقل قبل التبين خصوصا عند الدول المشرقية فكيف يتيسر للوزير والحالة ما ذكر أن يجري ادارة المملكة على مواقع المصلحة مخالفا لذلك من هو الخصم والحكم ولما في هاته الحالة الثانية من العوائق يضطر الوزير المذكور اما الى اختيار الحالة الاولى بالمجاراة وسلوك طرق المداراة وعاقبة ذلك وخيمة لعوده بالمضرة على الوطن والملك وعلى نفسه لان مستعذاب الموافقة على الشهوة في الحال الناشئ عنه خراب المملكة

يستعقب مرارة الندامة فى المآل واما الى الاستعفاء من الخدمة بالمرة وهو وان لم يكن واجبا لحفظ ذاته فهو واجب للتخلص مما يتوقع من الموافقة على ما يؤل الى خراب المملكة الموجب لعقاب الخالق ولوم المخلوق اذ الانسان ولو ساغ له المخاطرة بنفسه لمصلحة الوطن لا يسوغ له المخاطرة بديانته وهمته وما يجب عليه من الطاعة للملك والمحبة للوطن لا يحصلان الا ببذل الجهد فى النصح بجلب المصالح ودرء المفاسد ان قدر عليهما وان لم يقدر فبالامتناع من الموافقة على ما يضر فان لم يفعل كانت موافقته مع العلم بما ينشأ عنها من المضرة خيانة

فبان بهذا ان الممالك التى لا يكون لادارتها قوانين ضابطة محفوظة برعاية أهل الحل والعقد خيرها وشرها منحصر فى ذات الملك وبحسب اقتداره واستقامته يكون مبلغ نجاحها ويشهد لذلك حالة الممالك الاورباوية فى القرون الماضية قبل تأسيس القوانين فقد كان لهم فى ذلك الوقت من الوزراء من اهم شهرة الى الآن بتمام المعرفة والمروءة ومع ذلك لم يتيسر لهم حسم مواد الخلل المنبعث من صورتى استبداد الملوك المشار اليهما

لا يقال ان مشاركة أهل الحل والعقد للامراء فى كليات السياسة تضييق لسعة نظر الامام وتصرفه العام لانا نقول هذا التوهم يندفع بمطالعة الاحكام السلطانية للماوردى فانه قال فيه عند بيان وزارة التفويض هى أن يستوزر الامام من يفوض اليه تدبير الامور برأيه وامضاءها على اجتهاده وليس يمتنع جواز هذه الوزارة فان الله تعالى يقول حكاية عن نبيه موسى عليه السلام (واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى) فاذا جاز ذلك فى النبوة كان فى الامامة أجوز انتهى

قلت

(قلت) فاذا جاز تشريك الامام لوزيرالتفويض على الوجه المذكور ولم يعد مثل ذلك تنقيصا من تصرفه العام كان تشريكه لجماعة هم أهل الحل والعقد في كليات السياسة أجوز لان اجتماع الآراء الى مواقع الصواب أقرب ولهذا لما جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة شورى بين ستة قال ان انقسموا اثنين وأربعة فكونوا مع الاربعة (ميلا منه الى الاكثر لان رأيهم الى الصواب أقرب قاله السيد السند) وان تساووا فكونوا في الحزب الذي فيه عبد الرحمن بن عوف على ان المولى سعد الدين في شرح العقائد لم يمنع المشاركة في تصرفات الامامة وقصر منع التعدد على منشأ الفساد حيث قال في أثناء مبحث الامامة غير الجائز هو نصب امامين مستقلين تجب طاعة كل منهما على الانفراد لما يلزم عليه من امتثال أحكام متضادة وأما في الشورى فالكل بمنزلة امام واحد انتهى أي لان تعدد الاشخاص لا ينافي وحدة الامامة التي مدارها على وحدة الامر والنهي وقد سلم كلام السعد محشوه كالفاضلين عصام الدين وعبد الحكيم وقرره الخيالي بقوله وقد يجاب أيضا وبالجملة فكلهم معترف بصحة كلام السعد في نفسه وظاهر حينئذ أحروية جواز الشورى في كليات السياسة بالمعنى الذي أشرنا اليه فهي دون الشورى في سائر التصرفات ثم ان الشورى على الوجه المذكور ليس فيها تضييق لدائرة خطة الامامة وعموم تصرفها باعتبار ان نظر أهل الحل والعقد بمنزلة نظر الامام ومراعاة كونه مظهرا له لاستبداده بمشيئته وادارته فيما يستبد به من التصرفات التي لا تقتضي المشاركة كاجراء الخطط السياسية والتجريه مع الاجانب ونصب ارباب الخطط وتأخيرهم وتنفيذ سائر الاحكام ونحو ذلك من التصرفات

التى هى محل وحدة الآخر وهاك شاهدا آخر من كلام الامام ابن العربى فانه قال فى المغارم التى تؤخذ من الناس عند فراغ بيت المال انها تؤخذ جهرا لا سرا وتنفق بالعدل لا بالاستئثار وبرأى الجماعة لا بالاستبداد انتهى ولزيادة البيان نستوضح ذلك بمثال وهو ان مالك البستان الكبير مثلا لا يستغنى فى اقامته وتدبير شجره عن الاستعانة بأعوان يكون لهم مزيد معرفة بأحوال الشجر وما يصلحه أو يفسده فاذا اتفق ان رب البستان أراد قطع شئ من فروع شجره لما رأى فى ذلك من تقوية الاصول وتنمية ثمارها فلم يوافقه أعوانه على ذلك علما منهم بمقتضى قواعد الفلاحة ان القطع فى ذلك الوقت مما ينشأ عنه موت الشجرة من أصلها فتعطيل ارادة المالك فى ذلك لا يعد تضييقا لسعة نظاره وعموم تصرفه فى بستانه وقد يكون مستند الاعوان فى تعطيل ارادته أمرا شرعيا كما اذا اراد بيع الثمرة قبل بدو صلاحها مثلا فأشاروا عليه بأن ذلك لا يرضاه خالق الشجر الذى هو المالك الحقيق فيلزمه الرجوع لرأيهم فى المثالين والا توجه اللوم اليه واستحق ان يحجر عليه وهل يقال حينئذ ان ذلك تضييق على رب البستان بل ان التوسعة عليه مضادة للحكمة الالهية فى ايجاد العالم واستعمار أرضه ببنى آدم هذا مع ان منفعة البستان مختصة بربه أما اذا كانت له ولغيره أو منزلته فيها كما قال عمر رضى الله عنه كمنزلة والى اليتيم فأحرى ان لا يتوهم ان ذلك تضييق عليه ومعلوم ان تصرف الامام فى احوال الرعية لا يخرج عن دائرة المصلحة وان القيام بمصالح الامة وتدبير سياستها مما لا يتيسر لكل احد فتعطيل الارادة حينئذ انما يقع فى شئ خارج عن دائرة التصرف المسوغ له فتحرر بما شرحناه اندفاع ذلك

ذلك القيسل وانه لامانع من التشريك على الوجه المذكور ومن لاحظ جانب المقتضى كما لاحظه الشيخ ابن العربى فيما قدمناه عنه وهو ملحظنا فى جميع ما أسلفناه لم يتوقف فى الجزم بتعينه لاسيما فى هذا الزمان الذى قل فيه العرفان وكثر الطغيان وقد كانت وقعت بينى و بين أحد أعيان أوربا مكالمة اسهب فيها بمدح ملكهم وذكر ماله من مزيد المعرفة بأصول السياسة حتى قال انه متقيد بطبعه وعقله عن سلوك غير منهاج الصواب فقلت له كيف تشاحونه فى الحرية السياسية وترومون مشاركته فى الامور الملكية والحال انكم تسلمون له من الكمالات ما لا يحتاج معه الى المشاركة فأجابنى بقوله من يضمن لنا بقاءه مستقيما واستقامة ذريته بعده

ومما يناسب سوقه هنا ما ذكره المؤرخ الشهير تيارس أحد أعضاء مجلس النوّاب بفرانسا الآن وكان وزيرا للملك لويز فليب فى آخر تاريخه المشهور عند ذكر عواقب الاستبداد وان العمل بالرأى الواحد مذموم ولو بلغ صاحبه ما بلغ من الكمالات والمعارف بعد ما ترجم لنابوليون الاول بأوصافه الخاصة وألحقه فى السياسة بافراد الرجال الذين جاد بهم الدهر فى القرون الماضية حتى وصفه بهمة اسكندر الرومى وقيصر الرومانى وذكاء أنيبال الافريقى ومعارفه الحربية الى أن قال مخاطبا للفرنسيس تعالوا نمعن النظر فى أفعال هذا الملك التى هى فى الحقيقة أفعالنا فيستفيد منها من كان جنديا كيف ينبغى أن تقاد الجيوش ومن كان من رجال الدولة معرفة كيف ينبغى ان تكون ادارة المملكة وكيف ينبغى ان يرتفع شانها بدون خروج عن دائرة التواضع والرفق اذ المعاملة متى لم تكن مصحوبة برفق

وقناعة لاتضمحل وربما يفضى ذلك الى أسباب الاضمحلال كما
أفضت اليها سيرة المذكور الذى هو أقل البشر قناعة فبالجملة نعتبر
بغلطاته فنتجنبها ثم نستفيد معاشر أبناء لوطن تربية أخيرة لاينبغى نسيانها
وهى انه لا يسوغ أبدا أن يسلم أمر المملكة لانسان واحد بحيث تكون
سعادتها وشقاوتها بيده ولو كان اكمل الناس وأرجحهم عقلا وأوسعهم
علما ونحن وان كنا السنا ننتقد فعل نابوليون فى افتكاكه فرنسا من
أيدى الديركتوار بعد ان كانت اشرفت على الضياع فى أيديهم لكن
نرى ان وجوب استخلاص المملكة من تلك الايدى الضعيفة الخاسرة
لا يكون حجة فى اسلامها اسلاما مطلقا ليد قاهرة متهورة لاتبالى بشئ
ولو كانت هى اليد المنتصرة فى ريفلى ومرنغو على اننا نقول ان كان
هنالك أمة تعذر عذرا ما فى تسليم أمرها لشخص واحد فلا تكون
غير الامة الفرنساوية فى ذلك الوقت أعنى سنة ثمانمائة وألف
حين استرأست نابوليون المذكور عليها والناس اذ ذاك فوضى
لا سراة لهم ولم يكن المشير عليها بذلك قاصدا مجرد تخويفها لالجائها
الى قيود العبودية بل كان تخوفا محققا بالمشاهدة فى احمرار تلك الامة
على ألوف من النفوس البريئة صرعت بالجزرة وألوف كذلك خنقت
بسجون الدير وألوف اغرقت بوادى لوار وبالجملة فقد حل بأولئك
المتمدنين من أفعال المتوحشين أمر فظيع روعهم وأرعد فرائصهم
ولم يزالوا بعد سكون تلك الثورة الهائجة راتجين بين لسيان المولعين بقطع
الرؤس وهم جماعة الديركتوار وبين الجهال المتغربين عن وطنهم
وهم شيعة الملوك الذين كانوا يرومون باراقة الدماء ارجاع فرنسا الى
الحالة القديمة التى كانت قبل الثورة معمما طارأعلامهم فى أثناء ذلك

الاضطراب

الاضطراب من ظهور سيف الاجنبي متهددا فبينما هم فى لجج الهرج اذ اقبل من المشرق الشاب المنصور الذى ذلت له صعاب الامور العاقل المتواضع المغرى باستمالة قلوب البشر وهو نابوليون المشار اليه افتراهم والحالة هذه لا يعتذرون فى القاء زمامهم بيد المذكور بل

اذا لم تكن الا الاسنة مركبا * فلا يسع المضطر الا ركوبها

ومع ذلك فلم تمض الاسنوات قليلة اذ انقلب ذلك العاقل مجنونا بجنون غير مماثل لجنون ارباب الثورة والجنون فنون فانه تقرب عليون من النفوس فى ميدان الحرب وحمل أهل اوروبا على التعصب على فرنسا حتى بقيت مغلوبة غريقة فى دمائها مسلوبة من نتائج انتصارها مدة عشرين سنة بحيث صارت على حالة يرثى لها ولم يبق لها ان تستقر بعد ذلك الا ما كان مزدرعا فيها من بذر التمدن الوقتى فمن كان يظن ان عاقل سنة ثمانمائة وألف يجن فى سنة اثنى عشرة وثمانمائة والف نعم كان يمكن توقع ذلك لو امعنوا النظر فى ان الذى له القدرة التامة بحيث يستطيع ان يفعل كل ما يريد معه داء لا دواء له وهو الشهوة الداعيه لفعل كل مستطاع ولو كان قبيحا اذا تقرر هذا فعلى ابناء الوطن ان يتأملوا السيرة المذكورة ويستخرج منها كل فريق ما يناسب خطته والاهم امر واحد وهو ان لا يناط امر الوطن لانسان واحد كائنا من كان وعلى أى حالة كان وقد ختمت هذا التاريخ الطويل المستوعب لاحوال نصرنا وانهزامنا بهذه النصيحة بل النصيحة الصادرة عن صميم فؤادى غير مشوبة بريا راجيا بلوغها الى قلب كل فرنساوى ليتيقن جميعهم انه لا يليق بهم بذل حريتهم الى احد كما لا ينبغى لهم

الافراط فيها حتى تنتهك حرمتها انتهى المراد منه وفى حكمة أرسطوان
من الغلط الفادح أن تعوض الشريعة بشخص يتصرف بمقتضى ارادته
فاذا تأملت كلامى هذين الحكيمين وما تضمنه أولهما من المشاحة
فى الاستبداد مع كون المستبد من المشهود لهم بمزيد العرفان والاهلية
تعرف بذلك ما جبلت عليه نفوس القوم من حب الحرية والامتناع من
ظلم الملوك كما يشهد به كلام سيدنا عمرو ابن العاص رضى الله عنه فى
حديث مسلم الذى رواه المستورد القرشى رضى الله عنه عنده فقال
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تقوم الساعة والروم أكثر
الناس فقال عمرو ابصر ما تقول قال أقول ما سمعته من رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال لئن قلت ذلك ان فيهم لخلالا أربعا انهم لاحلم الناس
عند فتنة وأسرعهم افاقة بعد مصيبة وأوشكهم كرة بعد فرة وخيرهم
لمسكين ويتيم وضعيف وخامسة حسنة جميلة وأمنعهم من ظلم الملوك
هذا وقد كانت الامة الاسلامية وقت احترامها للاصول الشرعية
المشار الى بعضها سابقا بالمكانة التامة من الثروة والشوكة المحروستين
بسياج حسن تدبير أمرائها وعدلهم واستجلابهم رضاء الله تعالى بتعمير
أرضه نقل صاحب كشف الظنون ان بعض العلماء قال لو علم عباد الله
رضاء الله فى احياء أرضه لم يبق على وجه الارض موضع خراب
ومن حكم أرسطو العالم بستان سياجه الدولة والدولة سلطان تحيا به
السنة والسنة سياسة يسوسها الملك والملك نظام يعضده الجند والجند
أعوان يكلفهم المال والمال رزق تجمعه الرعية والرعية عبيد يكنفهم
العدل والعدل مألوف وبه قوام العالم فقد تضمنت هذه الكلمات
الحكمية الاشارة بجعل العالم بستانا الى تشبيه الرعية بشجر ثمرته المال

وحارسه

وحارسه الجند وان استقامة الدولة بها حياة الامة السياسية التي هي مادة حياة بستان العالم ومن آثار ثروة الامة الناتجة عن احترام اصول العدل ما حكاه المقريزي في الخطط قال لما سار المأمون في قرى مصر وكان يقيم بالقرية يوما وليلة اجتاز بقرية يقال لها طاء النمل ولم يقم بها فتوسلت اليه عجوز كبيرة بالقرية في الاقامة فأسعفها واحضرت من لوازم نفقة الخليفة وجنوده ما عظم لديه امره واهدت له حين عزم على الرحيل عشرة أكياس من سكة الذهب كلها ضرب عام واحد فازداد تعجبه وقال ربما يعجز بيت المال عن مثل هذا وردعليها المال فقابها فلم تقبل وقالت هذا مشيرة الى الذهب من هذه أي طينة الارض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين وعندي من هذا شئ كثير فقبله واعظم جائزتها انتهى بتصرف واختصار (وحكى) ايضا ان خراج مصر بلغ في زمن الخلفاء الراشدين أربعة عشر مليون دينار وقدرها بسكة الوقت نحو سبعمائة مليون فرنك وهذا المبلغ دخل الة واحدة مع الانصاف في الجباية وحكى ابن خلدون في المقدمة ان المحمول الى بيت المال في أيام الرشيد العباسي بلغ الى سبعة آلاف وخمسمائة قنطار ذهبا وقدر ذلك تقريبا ألف وأربعمائة مليون فرنك وهذا دون ما يؤخذ من العين ويدل على القوة العسكرية الناتجة من عدل الشريعة واتحاد الامة ما تيسر لهم من الفتوحات التي يشهد بها المؤرخون من الفريقين ويصدقها العيان ففي قرة العيون الذي ترجمه الشيخ احمد الزرافي المصري من اللغة الفرنساوية وعد من حسنات المطبعة المصرية ان الاسلام فتح في ظرف ثمانين سنة من الاقاليم أكثر مما فتحه الرومان في ثمانية قرون وبما نقلناه يعلم ما كان للامة الاسلامية من نمو العمران وسعة الثروة والقوة

الحربية الناشئة عن العدل واجتماع الكلمة واخوة الممالك واتحادها في السياسة واعتنائها بالعلوم والصناعات ونحوها من المآثر العرفانية التي ظهرت في الاسلام ونسج الاوربايون على منوالها وشهد المنصفون منهم بفضل التقدم فيها للامة الاسلامية

ففي تاريخ دروي وزير المعارف العمومية بفرنسا الآن مامعناه بينما أهل أوربا تائهون في دجى الجهالة لايرون الضوء الا من سم الخياط اذ سطع نور قوي من جانب الامة الاسلامية من علوم أدب وفلسفة وصناعات واعمال يد وغير ذلك حيث كانت مدينة بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وفاس وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف ومنها انتشرت في الامم واغتنم منها أهل أوربا في القرون المتوسطة مكتشفات وصناعات وفنونا عليه يأتي بيانها وفيه يقول كانت الآداب قبل انتشار العرب من جزيرتهم متأصلة فيهم مؤداة بلغتين الحميرية في اليمن والقرشية في الحجاز وبالاخيرة جاء القرآن (ولايخفى عليك ان الذي يقابل الحميرية هو المضرية وان وقع الاجماع في القراءة على خصوص القرشية) ولذلك اشتهرت واستمر حلوصها الى وقتنا هذا باستمرار كتب العلم والديانة ومادخلت العجمة في اللسان الا بدخول الامم في الاسلام وتطاول السنين * وللغة المذكورة من الاتساع وسعة المجال مالايخفى على منه فنها لاسيما في الاشياء التي بها قوام المعيشة في البادية أو تتكرر رؤيتهم لها وتكثر حاجتهم اليها فقد يكون للشيء الواحد عدة اسماء باعتبار تعدد صفاته واحواله وبكثرة الترادف عندهم اتسعت لهم دوائر الآداب الشعرية اذ يقال ان للعسل عندهم ثمانين اسما وللثعبان

ماتين

مائتين وللاسد خمسمائة وللجمل ألفا وكذا السيف وللداهية نحو أربعة آلاف اسم ولا جرم ان استيعاب مثل هذه الاسماء يستدعي حافظة قوية وللعرب من قوة الحافظة وحدة الفكر مالا يسع احدا انكاره فمن مشاهيرهم حماد الراوية الذي ذكر يوما للخليفة الوليد انه ينشد له في الحال مائة قصيدة والقصيدة من عشرين الى مائة بيت فتعب المستمع قبل المنشد الى ان قال ولم يكن للعرب في اول الامر الا تلك الآداب ثم لما اتسعت لهم دوائر الفتوحات واختلطوا بالامم الذين سبقوهم في الحضارة اتسع لهم نطاق المعارف فأخذوا من اليونان تآليف ارسطو وشرحوها بامعان نظر لكن من سوء البخت لم يأخذوا الفلسفة من كتب اليونان الاصلية وانما تعلموها من الكتب المترجمة بلغة اهل الشام فهم ترجموا المترجمة فلذلك لما نقلها الفيلسوف العربي حفيد بن رشد الى اوربا في القرون المتوسطة وجد بها من التحريف اكثر مما وقع فيها اولا واما العلوم الرياضية فقد صادف فيها العرب المرمى والفضل في ذلك للعلماء الذين جلبهم الخليفة المأمون من القسطنطينية وفي اوائل القرن التاسع المسيحي امر الخليفة المذكور عالمين من فلكية بغداد ان يقيسا مسافة درجة واحدة من خط الطول بصحراء سنجار ويزناها ليثبت بذلك تكوير الارض بالمشاهدة وقد تبين ذلك باختلاف ارتفاع القطب الشمالي عن طرفي الخط المقيس وقد شرح العرب كتاب اقليدس وهذبوا زيج بطليموس وحرروا حساب تعريج منطقة البروج كما حرروا الفرق بين اوقات الاعتدال والفرق بين السنين الشمسية والزمنية فوجدوا بين السنة الشمسية والسنة الزمنية

عدة دقائق واخترعوا للتحريرات آلات جديدة الى غير ذلك مما يدل على ما للعرب من قابلية العلوم الرياضية ومنهم حازت مدينة سمرقند قبل أوربا بكثير محل رصد عجيب وأما ما ينسب للعرب من اختراع الجبر والمقابلة والارقام الحسابية المسماة عندنا بالارقام العربية فلم يثبت بل انما تعلموا ذلك مع فلسفة ارسطو بالتلقي من غيرهم وهي من العلوم التي وجدوها باسكندرية ويمكن انهم نقلوا البناء على ذلك الوجه البوصلة اي بيت الابرة والبارود الذي تعلموه من أهل الصين كما يعترف لهم أهل أوربا بمزية اختراع الكاغد من القماش وبذلك كثرت الكتب ودنت أسعارها وسهل الطبع وتوفرت نتائجه بعد وجوده وقد اشتهر العرب ايضا بمعرفة الطب الذي كانوا تلقوه من كتب اليونان ولابن رشد تعليقات عديدة على كتب جالينوس شاهدة بما ذكر ومن فلاسفتهم عدة أشخاص صاروا في وقت واحد حكماء وأطباء مشاهير مثل أبي علي بن سيناء المتوفى سنة ست وعشرين وأربعمائة هجرية وابن رشد المذكور وقد بلغوا من الشهرة الى حيث صار أعداؤهم في ذلك الوقت يرغبون في معالجتهم اياهم كما يحكى ان بعض ملوك قسطلية كان اعتراه مرض الاستسقاء فاشتهى أن تكون معالجته بقرطبة وحصل من لطف الخليفة على الاذن في أن يذهب ويداويه المسلمون ومن مآثر حكماء العرب كيفية تقطير المياه واستعمال الراوند وأدوية كثيرة ومن العلوم التي لهم الفضل فيها الجغرافيا وسبب تقدمهم فيها ان اتساع فتوحاتهم ورغبتهم في الاسفار الخطيرة لافتراض الحج عليهم أنتجت لهم المعرفة بكثير من البلدان الشاسعة التي لم يصل اليها اهل أوربا أونسوها بعدما كانت معروفة لهم ومن مشاهيرهم في هذا الفن ابو الفداء والمسعودي

والادريسي

والادريسي وهذا الاخير هو الذى استدعاه روجير ملك صقلية وألف عنده كتابه الغريب الذى سماه نزهة المشتاق وأمّا علم التاريخ فمن تآليفهم فيه تاريخا المسعودى وابى الفداء المذكورين وتاريخ المقريزى غير انها تواريخ مختصة بابناء جنسهم وقل أن يوجد بها التكريتيك يعنى انهم لا يسبرون منقولاتهم بمسبار العقل كما أشار الى ذلك ابن خلدون ولا يخرجون عن دائرة الوقائع المجردة ولا سبب لذلك الاما حكاه (سدليو) فى تاريخه الآتى ذكره من أن وجود التسلط من الملوك فى بلدان المشرق هو الذى كان يمنع المؤرخين من شرح جميع الوقائع ببيان أسبابها للخطر الذى يلحقهم فى حكاية الحق وأمّا صناعة (الارشتكتور) اى هندسة البناء فى اصطناع الهيآت فلم يشتغل العرب منها الا بما يرجع الى اتقان الابنية حيث كانت شريعتهم تمنع التصوير على ان البناء نفسه لم تظهر لهم فيه اختراعات غريبة فالاصل عندهم فى الاقواس المرفوعة على الاسطوانات أن تكون أكبر من نصف دائرة وهذا الشكل أخذوه من أبنية البزنتيين وهم أمّة من اليونان واعتاض العرب عن الصور الذهنية والمجسدة التزيين بالنقش المسمى عندهم بنقش حديدة وكان فى الاصل رسوما لها مدلولات ثم صار مجرد خطوط متقاطعة شبيهة بالحروف العربية التى يمكن ان يصوّر منها اشكال جيدة ظريفة وكثيرا ما تعجب من اتقان تلك الحروف حين تراها على الزرابى والاقمشة المشرقية ومن مآثر العرب اصطناع الجوابى والفوارات والتزويق بالذهب والاحجار الثمينة كالمرمر التى كانوا يجلبونها من المشرق ومن مقاطع اسبانيا الجنوبية ومن أشهر ابنيتهم الجامع العظيم الذى بناه عبد الرحمن الاول بقرطبة وكان به ألف وثلاث وتسعون اسطوانة وأربعة

آلاف وسبعمائة قنديل ثم قصر الزهراء الذى لا يتأخر عن الجامع المذكور
فى العظم وقد بناه عبد الرحمن الثالث على شاطئ الوادى الكبير وبه
ينبوع عظيم يفور منه شبه باقة من الزئبق ثم ينعكس فى قصعة من المرمر
ومن بديع أبنيتهم حمراء غرناطة التى هى فى آن واحد قصر وحصن وبها
عدة امور تصلح ان تكون مثالا للطافة البناء وحسنه خصوصا وسطها
المسمى ببطحاء الاسود (وأما) التجارة فقد كان للعرب حسن رغبة فيها
فى سائر الاوقات ثم لما امتدت سلطنتهم من البيرينى وهى جبال بين
فرنسا واسبانيا الى جبال هملاى التى بأقصى شمال الهند صاروا اكبر
تجار الارض (وأمّا) الفلاحة فلا يعلم لهم نظير فيها اذ ليس لغيرهم
ما لهم من الاقتدار على جلب المياه وتوزيعها بلطف فى مزارعهم الواسعة
تحت شمسهم المحرقة فسيرتهم فى ذلك السائرة بها الى الآن أهل بلنسية
روضة اسبانيا صالحة أن نجعلها أسوة نقتدى بها فى فلاحتنا الفرنساوية
وأمّا الصناعات فان العرب تعلموا جميعها لما دخلوا بلدان الرومانيين
العظيمة حتى صاروا من أحذق أربابها وكفاهم شهرة فى ذلك سلاح
طليطلة التى كانت تحت سلطانهم باسبانيا وحريرات غرناطة والجوخ
الازرق والاخضر بمدينة (كونسة) والسروج والحروج والجلود
بقرطبة وكان اهل أوربا يشترون هذه المهمات بأعلى ثمن ويتنافسون
فيها مع شدة نفرتهم من اهلها المخالفين لديانتهم وبالجملة فقد بلغت اسبانيا
من العمران الى هذه الشهرة فى القرون الاولى من مدة الخلفاء حيث كانت
الفتن عنها أسكن من المشرق وقد تزايد نموّ سكانها الى أن صار بمدينة
قرطبة وحدها نحو مائتى ألف دار وستمائة جامع وخمسين مارستانا وثمانين
مكتبا عموميا وتسعمائة حمام ومليون نفس فهاك برنامجا اجماليا للتمدن

الذى

الذى نشره العرب من شاطئ تاج وهو واد كبير باسبانيا الى وادى هندوس بالهند تمدنا يكاد يخطف نوره الابصار ولكنه لسرعة نموه كان معرضا للعطب قال وتمدن اوربا اليوم كان ابطأ فى النمو ولكنهم حصلوا بعد انقلابات وكسوفات على ما يمكن به طول البقاء المعتاد فى كل بطئ النمو وقال فى بيان امتداد ملك العرب قد امتد ملكهم فى ظرف مائة سنة من ظهور الاسلام مثل ما امتد عظيم الخلقة فانحاذ راعيه لالتقاط شئ فبلغ من اقصى الهند الى جبال بيرينى الكائنة بين فرنسا واسبانيا وقدر امتداد هذا الملك من سبع عشرة الى ثمان عشرة مائة فرسخ ولم يبلغ هذا المبلغ دولة من الدول الماضية وقد استمرت الديانة واللسان واحكام القرآن نافذة فى غالب البلدان التى فتحوها واغتنمت منهم اوربا فى القرون المتوسطة مكتشفات وصنائع وعلوما وان كان منها ما اخذوه من غيرهم لكن لهم الفضل فى تهذيب ذلك وتخليده بعدهم ثم فى النصف الثانى من القرن العاشر المسيحى توجه الراهب الفرنساوى جربير الذى جلس على الكرسى البابوى باسم سلفستر الثانى الى مسلمى اسبانيا وقرأ هنالك علم الجبر والفلك واجرى لاهل اوربا النصرانية منهم لاجديدا من معارف العرب وجمع خزانة جليلة من الكتب وصنع كرتى السماء والارض اه ما امكن تلخيصه من كلام الوزير المشار اليه وفى تاريخ العرب لسدليو مدرس علوم التاريخ باحدى مدارس فرنسا واحد اعضاء جمعية المعارف بها ما معناه انى منذ مدة طويلة تنيف على العشرين سنة مشتغل ببيان مزايا العرب على غيرهم من الامم فيما يتعلق بالعلوم والتقدم فى التمدن مدة قرون متطاولة من ايام اليونان بالاسكندرية الى ايام العصر الجديد فلزمنى ان اجمع ما تيسر لى من الادلة على عظم هذه الامة التى لم يعرف

قدرها الى الآن واعرضه على مالغيرى من تكلم عليها فيتأسس تاريخاً لها عموميا وان كان ذلك مما لا تفى به طاقة انسان واحد وقبل الشروع فى ذلك على وجه الاختصار يلزمنى ان أندب الناس الى التأمل فى احوال هذا الجنس الذى كان كثير الفتوحات عديم الاستيلاء عليه فى سائر مغازيه ولم يزل مدة اربعة آلاف سنة على حال واحد فى اكتساب الفضائل والمزايا التى تميز بها على غيره والتراتيب والعادات الخاصة به ومن جميع ذلك ان الوقت الذى كانت فيه الممالك القديمة فى مبدأ تكونها ذات خبرة كان هذا الجنس اذ ذاك قائماً بنفسه قادراً على الاغارة على غيره فقد كانت ملوك مصر وبابل من ذلك الجنس مدة تسعة عشر قرنا قبل التاريخ المسيحى ثم بعد ان رجع الى حدوده الاصلية دافع من نفسه سلطة الفراعنة وملوك الشام وامتنع من تسلط فيرس واسكندر ودام فى استقلاله ضد الرومان الذين كانوا ملكوا الدنيا وبعد ظهور (النبى صلى الله عليه وسلم) الذى جمع قبائل العرب أمة واحدة تقصد مقصدا واحدا ظهرت للعيان أمة كبيرة مدت جناح ملكها من نهر طاج فى اسبانيا الى نهر (الغانج) فى الهند ورفعت على منار الاشادة اعلام التمدن فى اقطار الارض ايام كانت اوروبا مظلمة بجهالات اهلها فى القرون المتوسطة كأنها نسيت بالمرة ما كان عندها من التمدن الرومانى واليونانى وبعد انقسام ممالك الاسلام لم تتعطل العلوم والآداب التى نجحت على ايديهم فان خلفاء بغداد وقرطبة ومصر وان ضعفت قوتهم الملكية والسياسية فان سلطنتهم الروحانية لم تزل قوية مطاعة فى كل جهة لاجتهادهم فى توسيع دوائرها بقدر طاقتهم وقد نال النصارى الذين استطاعوا اخراج العرب من اسبانيا بالخلطة معهم فى الحرو بمعارفهم

وصنائعهم

وصناعتهم واختراعاتهم ثم المغل والترك الذين تسلطوا على آسيا وتداولوها كانوا خدمة فى العلوم لمن تغلبوا عليه من فرق العرب والى الآن لم نطلع فى اوروبا على الاصول التى تبين لنا عادات العرب اطلاعا تاما اذ لم يعرف عندنا من تواريخهم الا تواريخ ابى الفداء وابى الفرج والمقريزى وابن الاثير ونبذة من تاريخ ابن خلدون ونجهل بالمرة تواريخ كثيرة نود لو نجد من يترجمها لنا وان كان المقدار الذى حصل عندنا كافيا فى رد غلط من غلط من اهل اوروبا فى شأن العرب ثم انى ذكرت فى تاريخنا هذا ما يتعلق بفتوحات الخلفاء الاولين وبتاريخ دولة بنى امية بدمشق وقرطبة وبتاريخ دولة بنى العباس ببغداد والفاطميين بمصر وبانقسام الممالك الاسلامية بالمشرق بعد تسلط الترك والمغل عليهم فبينت جميع ذلك بقدر الطاقة وزدت عليه شيأ لم يوجد فى التواريخ السالفة وهو برنامج التمدن العربى الذى قد توشجت عروقه فى الدنيا القديمة واستمرت آثاره ظاهرة الى الآن لكل من يبحث بالجد عن اصل المعارف منا وفى اوائل القرن الثامن من تاريخنا تبدل ولوعهم بالفتوحات بالجد فى المعارف والعلوم فكانت اذ ذاك قرطبة ومصر وطليطلة وفاس والرقة واصبهان وسمرقند تتسابق فى ميدان العلوم مع بغداد تخت بنى العباس وترجمت فى تلك المدة كتب اليونان وقرئت بالمدارس وشرحت وسرت حركات عقولهم فى جميع مواد المعارف الانسانية فنتج عنها من الاختراعات الغريبة ما شاع صيته فى اوروبا فتبين بلا اشكال ان العرب هم اساتيذنا بلا انكار لانهم جمعوا الادوات المؤسسة عليها تواريخنا المتوسطة وبدؤا بكتابة الرحلات واخترعوا

التآليف في تاريخ وفيات الاعيان ووصلوا في صناعة اليد الى غاية لاتحدو بقيه آثار أبنيتهم ما يدل على اتساع معارفهم وكذلك اختراعاتهم الغريبة تزيد بيانا لفضائلهم التي لم ينزلوا الى الآن منزلتهم التي يستحقونها بسببها فان علوم الفيزيك والطب والتاريخ الطبيعي والكيمياء والفلاحة لما جاءت في ايديهم ازداد فيها الغريب مع كونها من المحسوسات التي لا تصرف لها همهم صرفا تاما فكيف بالعلوم العقلية التي اجتهدوا فيها اجتهادا يفوق الحد من مبدأ القرن التاسع الى انتهاء القرن الخامس عشر ثم نقول ما نسبة ما عرفناه الآن منهم بحثنا الى ما بقي مجهولا لنا من ذلك وبالجملة فالعرب هم منبع معارفنا ولم نزل الى الآن نطلع على اشياء من مخترعاتهم التي كانت منسوبة لغيرهم كلما قرأنا كتبهم ثم قال في شأن التمدن العربي انهم كانوا في القرون المتوسطة مختصين بالعلوم من بين سائر الامم وانقشعت بسببهم سحائب البربرية التي امتدت على اوربا حين اختل نظامها بفتوحات المتوحشين ورجعوا الى الفحص عن ينابيع العلوم القديمة ولم يكفهم الاحتفاظ على كنوزها التي عثروا عليها بل اجتهدوا في توسيع دوائرها وفتحوا طرقا جديدة لتأمل العقول في عجائبها ثم استشهد بقول اسكندر همبلط ان العرب خلقهم الله ليكونوا واسطة بين الامم المنتشرة من شواطئ نهر الفرات الى الوادي الكبير باسبانيا وبين العلوم واسباب التمدن فتناولتها تلك الامم على ايديهم لان لهم بمقتضى طبيعتهم حركة تخصهم أثرت في الدنيا تأثيرا لا يشتبه بغيره فكانوا في طبيعتهم مخالفين لبني اسرائيل الذين لا يطيقون خلطة احد من الناس فيخالطون غيرهم من غير ان يختلطوا به ولا يتبدل طبعهم بكثرة المخالطة

ولا ينسون اصلهم الذى خرجوا منه وما اخذت أمم المانيا فى التمدن الا بعد مدة طويلة من فتوحاتهم بخلاف العرب فانهم كانوا يحملون التمدن معهم فحيثما حلوا حل معهم فيبثون فى الناس دينهم وعلومهم ولغتهم الشريفة وتهذيباتهم واشعارهم الشهيرة التى هى اساس بنى عليه المسنفر والتربدور اشعارهم ثم قال بعد ذلك ونعود الآن فنقول انه ثبت عندنا بما صنفه العرب واخترعوه رجحان عقولهم الغريب فى ذلك الوقت الذى وصل صيته الى اوربا النصرانية وهذا حجة على انهم كما قال غيرنا ونحن نعترف به اساتيذنا ومعلمونا انتهى المقصود منه

ثم ان الدولة الاسلامية أخذت فى التراجع لما انقسمت الى دول ثلاث الدولة العباسية ببغداد والمشرق ودولة الفاطميين بمصر وافريقية ودولة الامويين بالاندلس ثم تكاثرت الحروب الداخلية وانقسمت تلك الدول خصوصا الاندلسية فانها صارت ملوك طوائف وتحقق فيهم قول القائل

ألقاب سلطنة فى غير موضعها * كالهر يحكى انتفاخا صولة الاسد

وموجب ذلك التفرق تعارض الاغراض والشهوات من الامراء والثوار الذين لم يعتبروا ما فى الانقسام من المضار على الجميع حتى نشأ عن ذلك خروج الاندلس من يد الاسلام

و وقع من الخلل فى بقية الممالك ما تفاقم ضرره لولا ان تلافى الامر بتأييد الله سلاطين آل عثمان الكرام فجمعوا غالب الممالك الاسلامية تحت رعاية سلطنتهم العادلة التى تأسست سنة ستمائة وتسع وتسعين من الهجرة النبوية فتراجع للامة عزها بحسن تدبيرهم واحترامهم للشريعة المصونة

بحفظ حقوق الرعية وبفتوحاتهم الجليلة المذكرة لفتوحات الخلفاء الراشدين وارتقائهم في سلم التمدن خصوصا في مدة السلطان سليمان ابن السلطان سليم في اوائل المائة العاشرة حيث بادر لقطع الذرائع التي يتوقع بسببها وقوع الخلل في الممالك بما رتبه من قانونه النافع الذي استعان فيه بالعلماء العاملين وعقلاء رجال دولته وجعل مداره على اناطة تدبير الملك بعهدة العلماء والوزراء وتمكينهم من تعقب الامراء والسلاطين ان حادوا وذلك ان ملك الاسلام مؤسس على الشرع الذي من اصوله المشار اليهما سابقا وجوب المشورة وتغيير المنكر والعلماء اعرف الناس به كما ان الوزراء اعرف بالسياسة ومقتضيات الاحوال فاذا اطلع العلماء والوزراء على شئ يخالف الشريعة والقانون الخادم لها فعلوا ما تقتضيه الديانة من تغيير المنكر بالقول أولا فان افاد حصل المقصود والا اخبروا اعيان الجند بأن وعظهم لم ينفع وبين في القانون المذكور ما يؤل اليه الامر اذا صمم السلطان على ان ينفذ مراده وان خالف المصلحة وهو انه يخلع ويولى غيره من البيت الملكي واخذ على ذلك العهود والمواثيق من العلماء ورجال الدولة واستمر العمل على ذلك فكانت منزلة العلماء والوزراء بالدولة بمقتضى هذا القانون في الاحتساب على سيرة السلاطين كمنزلة وكلاء العامة في اوربا الآتي بيانهم بل هي اعظم باعتبار ان الوازع الدنيوي الداعي الى الاحتساب متأيد بالوازع الديني عندنا فبذلك القانون المشار اليه استديم نجاح الدولة وحسن سيرتها

ثم انها اخذت في التأخر والنقص لما قصرت في اجراء المصالح الملكية على مقتضى الشرع والقوانين السياسية وعدمت التحري في انتخاب ارباب الخطط المعتبرة فتصرف بعضهم بحسب الفوائد الشخصية لا باعتبار

مصلحة

مصلحة الدولة والرعية الى أن دخل فى عسكر الانكشارية من افسد حسن نظامهم وخلخل طاعتهم حتى تداخلوا فيما ليس لهم من احوال الملك وحيروا راحة السكان بظلمهم المتنوع بعد ان كان يضرب المثل بطاعتهم كما يضرب بشجاعتهم فى ميادين الحرب فنشأ من مجموع هاته الامور وأمثالها الاضطراب فى المملكة واغتنم ولاة الممالك البعيدة الفرصة فى الامتناع من الانقياد لاوامر الدولة واطلقوا اعنة الاغراض والشهوات والتجأ الكثير من اهل الذمة الى الاحتماء بالاجانب لان الانسان اذا انقطع أمله من حماية شريعة الوطن لنفسه وعرضه وماله يسهل عليه الاحتماء بمن يراه قادرا على حمايته وربما يسعى فى الاسباب التى يمكن بها تسلط حاميه على المملكة خصوصا من لم يكن بينه وبين الدولة اتحاد فى الجنس والديانة وبمثل هاته المضار الناشئة عن تصرف الولاة بدون قيد شرعى او سياسى تيسر للاجانب التداخل فى احوال المملكة وافساد استهاء ما يناسب اغراضهم حتى نشأت حروب اهلية فى عدة جهات من المملكة دامت مدة طويلة وافنت نفوسا واموالا كثيرة وتسبب عنها خروج ممالك معتبرة من يد الدولة ووقع من الخلل فى باقيها ما اعظم ضرره لولا تدارك المرحوم السلطان محمود وولديه المرحوم السلطان عبد المجيد والمؤيد السلطان عبد العزيز دام عزه بتعويض الاول عساكر الانكشارية بالعسكر النظامى وقطع دابر أمراء الايالات المسماة عندهم بالداربى فانقطعت بذلك المظالم الناشئة من ذينك الفريقين وضبط الثانى للسياسات الشرعية بالتنظيمات الخيرية التى هى أساس تصرفات الدولة فى الحال باعانة من رجال الدولة وعلمائها العاملين سنة الف ومائتين وخمس وخمسين ثم باجتهاد الثالث أيده الله فى تمشيتها وتهذيبها واضافة

ما تظهر لياقته بالاحوال بمقتضى تجريبها كالقانون الذى رتبه أخيرا في ادارة مصالح الايالات الذى يؤمّل منه مصالح جمة وقد كانت العامة في مبدأ الامر أنكرت تلك التنظيمات انكارا كليا حتى ظهر في بعض جهات المملكة مبادى الاضطراب وسبب ذلك ان عمال تلك الجهات وغيرهم ممن له فائدة في التصرف بلا قيد ولا احتساب لما تيقنوا ان اجراء الادارة والاحكام على مقتضى التنظيمات مما يخل بفوائدهم الشخصية دسوا للعامة من قول الزور والغش ما ينفرهم منها مثل قولهم هذا شرع جديد مخالف لشريعة الاسلام واعانهم على ذلك من كان له من الدول الاوربا ويه فائدة في عدم نجاح سعى الدولة في تحسين احوال ممالكها فالدولة العلية عوض ان تغتنم تلك الفرصة وترجع الى استبدادها كما وقع في بعض الممالك كذبت تلك الظنون الفاسدة بارسال فخر علماء ذلك العصر وأتقاهم اعنى شيخ الاسلام المقدس عارفا بك الى جهات الاضطراب لوعظ الناس وامرهم بالطاعة والامتثال فخطب بذلك على المنابر و بين للناس ان تلك التنظيمات ليست خارجة عن المنهج الشرعى وماهى الا ضبط للسياسات الشرعية التى كانت اهملت وان الداعى اليها ليس الا تحسين ادارة المملكة وحفظ حقوق الامة في النفس والعرض والمال وكف الايدى الجائرة من الولاة ونحو ذلك من المصالح فانقادت الرعية عند ذلك وسكنت واستمر العمل بالتنظيمات في سائر الجهات بقدر الامكان وأنت خبير بأن مثل هذا الحبر الذى سارت بمآثره الركبان وشهد له بالعلم والعمل جهابذة ارباب العرفان خصوصا فخر القطر الافريقى وبحر الرشاد الحقيقى من بلغ صوت صيته مسامع سائر النواحى الاستاذ العلامة سيدى ابراهيم الرياحى لولم يرمساغا لهذه التنظيمات

ماخطب بها على المنابر ولا كان على تقريرها حزم مثابر ومن تأملها بعين الانصاف لم يجد في حسنها ولياقتها امثار خلاف بل جزم بانها قوام الاستقامة والوسيلة التي يستعاد بها ما كان للدولة من العز والفخامة وهذا الصنع الجميل الذي صدر من هؤلاء السلاطين العظام مع ما حصل به من تحسين حال الدولة والرعايا مما لا يسع المنصف انكاره بالنسبة لما كان قبل لم يقنع حزبا من المسلمين مع الرعايا من غيرهم بل لم يزالوا يطلبون من الدولة اطلاق الحرية بمقتضى قوانين يكون تأسيسها وحمايتها من مجلس مركب من أعضاء تنتخبهم الاهالي وفي هذه المدة الاخيرة اشتد الحاحهم في طلب ذلك حسبما تضمنته صحف الاخبار ونحن وان لم نطلع على احوال ادارة المملكة العثمانية في الحال لاسيما في كيفية اجراء تلك التنظيمات اطلاعا يمكننا معه معرفة صحة الاسباب التي يتظلم منها الفريق المذكور أو عدم صحتها فانا نسلم ان هذا المطلب الذي طلبوه هو من اعظم الوسائل في حفظ نظام الدولة وقوة شوكتها ونمو عمران ممالكها ورفاهية رعاياها خصوصا في هذه الازمان كما نسلم ايضا ان مقصد المسلمين من اهل الحزب المذكور بطلبهم ما ذكر انما هو اصلاح حال الدولة والرعية لكن لنا أن نسألهم هل ثبت عندهم ان مقصد غيرهم ممن معهم موافق لمقصدهم حتى تحصل لهم الثقة بهم ويصدر منهم ما ذكر فانا نرى خلاف ذلك منهم بما دلت عليه القرائن من أن مراد أكثرهم انما هو التفصي عن سلطة الدولة العثمانية حيث لم يظهر منهم بعد نيل الحرية الموجودة الآن شيء من امارات النصح للدولة بل ربما أظهروا حب النزوع الى بني جنسهم بالتظلم من تصرفاتها واستثارة مبادي الحيرة معها وذلك لاستمرار افساد الاجنبي لهم وزرعه بذر الحمية في صدورهم لاغراض له لا تخفى

ذريعة كان تأسيس الحرية على الوجه المطلوب آنفا قبل التبصر في العواقب مما يسهل غرضهم المذكور اذ من لوازم هذه الحرية تساوي الرعايا في سائر الحقوق السياسية التي منها الخطط السامية مع ان من الشروط المعتبرة في اعطائها تلك الحرية تواطؤ جميع الرعايا على مصلحة المملكة وتقوية شوكة دولتها ولا اقل من هذا السبب امتنع بعض الدول الاوروباوية من اطلاق الحرية المشار اليها تحاشيا من تحزب بعض الرعايا على تبديل العائلة الملكية كما سيأتي بيانه عند الكلام على حرية أوربا فاذا ساغ الامتناع مع كون البدل المتوقع من جنس المبدل منه فلأن يسوغ هنا مع كونه من غير الجنس احرى وأولى وأيضا فان رعايا الدولة ينقسمون الى عدة أجناس مختلفة الاديان واللغات والعادات وغالبهم يجهل اللغة التركية التي هي لغة الدولة بل يجهلون لغة بعضهم بحيث تعسر المفاوضة بينهم لو ركب مجلس من جميع طوائفهم ولا يتيسر اعطاء الحرية للبعض دون البعض لما ينشأ عن ذلك من الهرج فيجب أن تعتبر حالة هؤلاء الرعايا من اعظم العوائق عن تأسيس الحرية على الوجه المطلوب بالدولة العثمانية فمن اعتبر ما أشرنا اليه لا يسوغ له ان يوجه اللوم على الدولة في توقفها الى الآن عن اعطاء الحرية المطلقة وتأسيس المجلس المذكور وان كان ما ذكرناه لا يرفع عنها وجوب الاجتهاد في قطع تلك العوائق التي يكون حسمها بعون الله تعالى من مآثر دولة هذا العصر الذي رفع من اعلام العدل ما تنكس واحيا من رسوم الاستقامة ما اندرس فانا بمقتضى ما خوله الله من الحزم الناجح والرأي الراجح نؤمل أن نرى منه لا سيما بعد اطلاعه على احوال أوربا بالعيان وتطبيقها على ما كان معلوما لديه بالبيان مزيد العناية بكل ما يتيسر به اطلاق الحرية على الوجه الاكمل

الا كمل باعانة رجال دولته وعلمائها المتعاضدين على انجاح مصالح الدين والوطن والعارفين بأسباب التقدم ماظهر منها ومابطن

ثم ان من عوائق نجاح التنظيمات فى سائر الممالك الاسلامية تقاعس الدول الاوروباوية عن ادخال رعاياهم المستوطنين بها تحت احكامها استنادا للشروط القديمة التى لاتليق بهذا الوقت بل لاينبغى أن تسمى شروطا لانبنائها على مايخل بالشرط وعلى فرض تسليم بعض الشروط وتسليم مايوجب دوامها فانهم لايقفون عند نصها بل يستخرجون منها مااليس فيها مما هو مناف لحقوق المساواة بين الامم ولحقوق سلطنة الارض على كل واردلها يعنى ان من دخل مملكة من الممالك فلابد أن تجرى عليه أحكامها اوادعاء بأن معارف حكام الاسلام غير كافية لحفظ حقوق رعاياهم وان كراهيتهم للنصارى تحملهم على الحيف عليهم والجواب عن الدعوى الاولى ان مدعيها لايمكن أن يظن به تعميمها فى حكام المسلمين مطلقا أعنى سواء كانوا حكام شريعة أوسياسة لما هو معلوم عند كل عاقل خصوصا من هو منصف ان علماء شريعة الاسلام فى غاية المعرفة بأحكامها أصولا وفروعا فلم يبق الا أن يريد هذا المدعى حكام السياسة منهم وهذا غيرمسلم لما هو ظاهر من بطلان دعوى من يدعى جهل جميع أهل مملكة من الممالك بحيث لايوجد بها من يقوم باعباء احكام تنظيماتها نعم هناك شئ واحد وهو ان جميع الامور فى ابتدائها قبل التمرن عليها والاعتياد بها يقع فيها نوع اضطراب وارتباك حتى يحصل الاستئناس بها وتأخذ مأخذها وهذا امر طبيعى لايقدح به فى التنظيمات فانا نرى دولا وربما لم تكن من أول الامر حاصلة

الى هذا النجاح فى تنظيماتها المشاهدلها اليوم وانما حصلت على ذلك
واسطة اعانة السكان اهاعلى اجرائها بعدم المخالفة والشقاق اذ بدون
ذلك لا يطمع فى الحصول على شئ من نتائجها بل لم نزل نرى الى الآن
تفاوت الدول المذكورة فى تهذيب تنظيماتها ومعارف حكامها وعفتهم
ولم يمنع هذا التفاوت دخول المتقدم منهم فيها تحت احكام المتأخر فلم يبق
حينئذ الآن نقول ان هذه الدعوى مجرد توهم وليست مستندة الى
شئ من الادلة والتجارب لأنه لم يدخل احد من رعاياهم تحت احكام
تنظيماتنا حتى يلحقه الضرر منها بل لنا ان نقول انها مجرد مكابرة
وأمادعوى الكراهية فلا يخفى انها بعد تسليمها مشتركة الالزام اذ
للمسلمين ان يظنوا ان النصارى ايضا تحملهم العداوة على الحيف
عليهم وقت حلولهم ببلدانهم لكن الحق ان العداوة الدينية لا تستميل
الحاكم عن الانصاف المؤسسة عليه الشريعة وعن الوقوف مع الحق
حيث يجب حتى لو وجب على الحاكم نفسه لانصف طالبه منه كائنا من
كان عملا بما هو من قواعد الدين الذى هو أعظم وازع حتى لم يبق معه
لايثار النفس اثر فقد ورد ان زيد بن سعنة جاء قبل اسلامه يتقاضى من
النبى صلى الله عليه وسلم دينا له فجذبه من ردائه حتى أثر فى عاتقه الشريف
ثم قال انكم يا بنى عبد المطلب قوم مطل فانتهره عمر وشدد عليه فى القول
حيث لم يتوخ الرفق فى الطلب فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم
انا وهو كنا أحوج الى غير هذا منك يا عمر تأمرنى بحسن القضاء وتأمره
بحسن التقاضى ثم قال لقد بقى من أجله ثلاث وأمر عمر أن يقضيه ماله
ويزيده عشرين صاعا لما روّعه فكان سبب اسلامه رضى الله عنه
وورد ايضا ان يهوديا أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يطلب عليا

كرم الله وجهه فى حق وكان على عنده فقال له عمر قم يا أبا الحسن واجلس
مع خصمك ففرى فى وجهه على الغضب فلما انفصلت النازلة قال له عمر
ما معناه تغضب لطلبى ان تساوى خصمك فقال له على ما غضبت لذلك
وانما كرهت تكنيتك لى بحضرة خصمى فالحاكم اذا كانت ديانته
تلزمه الاتباع للشريعة بمقتضى الوازع الدينى والاقتداء بمن سلف من
الخلفاء الراشدين الذين هم نجوم الاهتداء كيف يتوهم منه ترجيح جانب
المسلم على غيره وبعد هذا لم يبق لمن له انصاف من الاوروباويين أن لا يرى
فيما ذكرناه ضمانة كافية لحفظ الحقوق كما انه لا يتأتى له أن يرى
امكان اجراء القوانين على وجه يثمر النتائج المقصودة منها مع امتناع بعض
السكان من المساواة فيها لاسيما والممتنع بيده غالب الصناعات والمتاجر
ثم انهم لم يكتفوا فى التعطيل بذلك الامتناع حتى صار بعضهم ينفر رعايا
بعض الممالك الاسلامية من قبول التنظيمات التى رام ملوكها تأسيسها
بأن يقولوا لهم ان هذه التنظيمات لا تليق بحالكم فرجوعكم الى
ما كنتم عليه أولى بكم مع ان ذلك مخالف لقواعد سياسة بلدانهم وبعضهم
يقول لهم ان الحرية التى منحتموها من دولتكم لا تفى بحفظ حقوقكم
مع انها فى الواقع اكثر مما منحته اوروبا لبلدانهم فلذلك نضطر ان نعتقد
أن لا داعى لذلك الا قصد دوام التحير فى الممالك الاسلامية لتعطيل
جهارا بالجملة فسياسة الدول الاوروباوية فى ممالكنا متناقضة
لان منهم من ينصح بعض الممالك بالاعانة على التراتيب المناسبة ومنهم من
يعطل ذلك بتلك المملكة ويبذل النصيحة المذكورة لغيرها على حسب
اختلاف اغراضهم

هذا وان سياسة غالب الدول الاوربا وية ولو كانت كما ذكرنا لكن من
الحق أن نقول فى خصوص مبحث الشروط انا رأينا عند المحادثة مع رجال
بعض الدول الغربية منها انهم يسلمون عدم لياقة تلك الشروط بهذا
الوقت ولا يمتنعون من تبديلها بما يناسب لكنهم يطلبون منا قبل ذلك
اعطاء الضمانة الكافية فى حفظ حقوق رعاياهم بترتيب مجالس للحكم
وتمشيتها مدة من الزمان حتى يثبت عندهم بالتجارب حسن اجراء الاحكام
بحيث يتيسر لهم تسليم رعاياهم على التدريج بحسب ما يرونه من نجاح
التراتيب حتى يتم دخولهم تحت احكامنا ونحن نقول لما كان بقاء حال
الاجانب على ما هو مشاهد اليوم مضرا بالممالك الاسلامية والدول
الاوربا وية لا تساعف على تبديل الشروط الا بما ذكرناه وجب
على الدول الاسلامية السعى فى ازالة هذا الضرر باعطاء تلك الضمانة
وابرازها للخارج ومن العوائق للتنظيمات وهو أعظمها تعرض
بعض المتوظفين فى تأسيسها واجرائها الماله م فى تعطيلها من المصالح
الخصوصية التى منها دوام تصرفاتهم فى الخطط بلا قيد ولا احتساب
هذا وان الامة الاسلامية لما كانت مقيدة فى افعالها الدينية والدنيوية
بالشرع السماوى والحدود الالهية الواردة على الميزان الاعدل المتكفلة
بمصالح الدارين وكانت ثمة مصالح تمس الحاجة اليها بل تتنزل منزلة
الضرورة يحصل بها استقامة امورهم وانتظام شؤونهم لا يشهد لها من
الشرع أصل خاص كما لا يشهد برده بل أصول الشريعة تقتضيها اجمالا
وتلاحظها بعين الاعتبار فالجرى على مقتضيات مصالح الامة والعمل بها
حتى تحسن احوالهم ويحرزون قصب السبق فى مضمار التقدم متوقف
على الاجتماع وانتظام طائفة من الامة ملتئمة من حملة الشريعة

ورجال

ورجال عارفين بالسياسات ومصالح الامة متبصرين في الاحوال الداخلية والخارجية ومناشئ الضرر والنفع يتعاون مجموع هؤلاء على نفع الامة بجلب مصالحها ودرء مفاسدها بحيث يكون الجميع كالشخص الواحد كما قال عليه الصلاة والسلام المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا وكما قال صلى الله عليه وسلم المؤمنون كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد فرجال السياسة يدركون المصالح ومناشئ الضرر والعلماء يطبقون العمل بمقتضاها على أصول الشريعة وأنت اذا أحطت خبرا بما قررناه علمت ان مخالطة العلماء لرجال السياسة بقصد التعاضد على المقصد المذكور من أهم الواجبات شرعا لعموم المصلحة وشدة مدخلية المخالطة المذكورة في اطلاع العلماء على الحوادث التي تتوقف ادارة الشريعة على معرفتها ومعلوم ان مالا يتم الواجب الا به فهو واجب وبيان ذلك ان ادارة أحكام الشريعة كما تتوقف على العلم بالنصوص تتوقف على معرفة الاحوال التي تعتبر في تنزيل تلك النصوص فالعالم اذا اختار العزلة والبعد عن أرباب السياسة فقد سد عن نفسه أبواب معرفة الاحوال المشار اليها وفتح أبواب الجور للولاة لانهم اذا استغنوا به فامتنع صاروا يتصرفون بلا قيد نعم يعاب على العالم شرعا وعقلا التساهل في الدين والتحيل في النصوص الظاهرة في خلاف ما أريد منها وارتكاب الاقوال الضعيفة ليوافق الاهوية والاغراض لا لاجل مصالح تتنزل منزلة الحاجة والضرورة حتى ينقلب ذلك الضعيف قويا وحيث كانت ادارة المصالح السياسية مما لا يتيسر لغالب الولاة اجراؤها على الاصول الشرعية لاسباب شتى يطول شرحها وتقدمت الادلة على ما يترتب على ابقاء تصرفاتهم بلا قيد من المضار الفادحة رأينا ان

العلماء الهداة جديرون بالتبصر في سياسة أوطانهم واعتبار الحال الواقع في أحوالها الداخلية والخارجية واعانة أرباب السياسة بترتيب تنظيمات منسوجة على منوال الشرع معتبرين فيها من المصالح احقها ومن المضار للازمة أخفها ملاحظين فيما يبنونه على الاصول الشرعية أو يلحقونه بفروعها الراجعة ذلك المقال الوجيز المنسوب لعمر بن عبد العزيز تحدث للناس اقضية بحسب ما احدثوه من الفجور وما في معناه من أدلة ان الشريعة لا تنافيها تقلبات الدهور ومن تصفح رسالة استاذ المشايخ الحنفيه ومحط رحال الاستفتاء بالديار التونسية من لم يزل على نقوله واقواله المعول الشيخ سيدي محمد بيرم الثالث وجد بها من الادلة ما يشهد لما ذكرناه فانه عرف السياسة الشرعية بأنها ما يكون الناس معه أقرب الى الصلاح وابعد عن الفساد وان لم يضعه الرسول ولا نزل به الوحي ثم أشار الى ذم ما كان من التصرفات السياسية في احد طرفي التفريط والافراط بقوله ان من قطع النظر عنها الا فيما قل فقد ضيع الحقوق وعطل الحدود واعان اهل الفساد ومن توسع فيها فقد خرج عن قانون الشرع الى انواع من الظلم ثم قال ونقل ابن قيم الجوزية عن ابن عقيل مخاطبا لمن قال لا سياسة الا ما وافق الشرع ان اردت بقولك الا ما وافق الشرع أي لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح وان اردت لا سياسة الا ما نطق به الشرع فغلط وتغليط للصحابة رضي الله عنهم وسرد امثلة من سياساتهم ولابن قيم الجوزية هنا كلام حاصله ان امارات العدل اذا ظهرت بأي طريق كان فهنالك شرع الله ودينه والله تعالى احكم من أن يخص طرق العدل بشيء ثم نفى ما هو اظهر منه وأبين وسئل القرافي عن الاحكام المرتبة على العوائد اذا تغيرت تلك العوائد هل تتغير

الاحكام

الاحكام لتغيرها أو يقال نحن مقلدون وليس لنا احداث شرع جديد لعدم أهليتنا للاجتهاد فأجاب بأن اجراء الاحكام التي مدركها العوائد مع تغير تلك العوائد خلاف الاجماع وجهالة في الدين بل الحكم التابع للعادة يتغير بتغيرها وليس هذا بتجديد اجتهاد من المقلدين بل هي قاعدة اجتهد فيها العلماء وأجمعوا عليها انتهى وعد ابن القيم من الجهل والغلط الفاحش توهم ان الشريعة المطهرة قاصرة عن سياسة الامة ومصالحها قال ولاجل هذا الغلط تجرأ الولاة على مخالفة الشرع فخرجوا عن حدود الله الى أنواع من الظلم والبدع في السياسة يعني وسبب ذلك تمسكهم أو تمسك العلماء الذين يفتونهم بظواهر النصوص فيضيقون ما وسعه الله عليهم فيضطرون الى خلع القيود وهتك الحرمات والحدود وبناء على ما تقرر يظهر أن اللائق بأولئك الهداة ان يتوسطوا بين التفريط والافراط بحيث لا يبعدون من رجال السياسة بعدا يتسبب عنه تبعيد تصرف الولاة عن الشريعة وما لا يدرك كله لا يترك قله ولا يقربون منهم قربا ينشأ عنه تقريب شهواتهم بتسهيل طرقها لهم

وحيث تقدم بيان الادلة الكافية لوجوب التنظيمات السياسية التي لو لم يكن الا تنفير الاجنبي والمتوطنين منها لكان كافيا في الدلالة على حسنها وليلاقتها بمصالح المملكة كان من أهم الواجبات على أمراء الاسلام ووزرائهم وعلماء الشريعة الاتحاد في ترتيب تنظيمات مؤسسة على دعائم العدل والمشورة كافلة بتهذيب الرعايا وتحسين أحوالهم على وجه يزرع حب الوطن في صدورهم ويعرفهم مقدار المصالح العائدة على فردهم وجمهورهم غير معتبرين بمقال بعض المجازفين ان تلك

التنظيمات لا تناسب حال الامة الاسلامية مستندا فى ذلك الى أربع شبه الاولى ان الشريعة منافية لها الثانية انها من وضع الشئ فى غير محله لعدم قابلية الامة لتمدنها الثالثة انها تفضى غالبا الى اضاعة الحقوق بما تقتضيه من التطويل فى فصل النوازل كما يشاهد ذلك فى سائر الخطط القانونية الرابعة انها تستدعى مزيد الضرائب على المملكة بما تستلزمه من كثرة الوظائف لادارتها المتنوعة

ولا يخفى على المتبصر ان جميع ما استند اليه مردود أما الشبهة الاولى فيكفى فى ردها ما أسلفناه مما يدل على ان الشريعة تقتضى التنظيمات لا سيما بعد اعتبار أحوال ولاة الوقت وعلى فرض ان يوجد فى التنظيمات بعد تأسيسها وتهذيبها من رجال العلم والسياسة شئ لا مسوغ له فلا مانع من تبديله ولا يكون توقعه سببا فى ترك تأسيس التنظيمات من أصله وأما بقية الشبه فلو أردنا الاكتفاء فى ردها بما تقدم لكفى ايضا لكن رأينا أن نزيدها ايضاحا وبيانا فنقول أما الشبهة الثانية فجوابها ان عامة غيرنا الذين بلغوا بالتنظيمات غاية التمدن كانوا فى مبدأ الامر أسوأ حالا من عامتنا وان كنا نسلم ان معارفنا الدنيوية الآن أقل مما انتجته التنظيمات لبعض الامم الاوروباوية لكن عند التأمل يثبت عندنا ان الامة الاسلامية بمقتضى ما شهد به المنصفون من رجحان عقول أواسط عامتها على عقول غيرها من الامم تقتدر أن تكتسب بما بقى لها من تمدنها الاصلى وبعاداتها التى لم تزل مأثورة لها عن اسلافها ما يستقيم به حالها ويتسع به فى التمدن مجالها ويكون سيرها فى ذلك المجال أسرع من غيرها كما انها من كان اذا أذكيت حريتها الكامنة بتنظيمات مضبوطة تسهل لها التداخل فى أمور السياسة وذلك ان الحرية والهمة الانسانية

اللتين

اللذين هما منشأ كل صنع غريب غريزتان في أهل الاسلام مستمدتان مما تكسبه شريعتهم من فنون التهذيب بخلاف غيرهم ممن لم تحصل لهم الغريزتان المذكورتان الا باجراء التنظيمات في بلدانهم نعم من الواجب على مؤسس أصول الحرية السياسية اعتبار حال السكان ومقدار تقدمهم في المعارف ليعلم بذلك متى يسوغ اعطاء الحرية التامة ومتى لا يسوغ ومتى يعمم المقدار المعطى في سائر السكان ومتى يخص بمن قامت به شروط معتبرة ثم توسيع دائرتها بحسب نمو اسباب التمدن شيأ فشيأ ثم لو سلم عدم القابلية للتنظيمات وان الامة كما يزعمه اولئك القادحون بمثابة الصبي غير الرشيد الذي يلزم التقديم عليه فهل ينهض لهم دليل على جواز ان تكون تصرفات المقدم خالية عن مراعاة مصلحة المقدم عليه وهل تتيسر تلك المراعاة بدون توقع احتساب مؤسس على الشرع واما الشبهة الثالثة فجوابها ان التطويل الذي يمكن عروضه في فصل النوازل لا يرجع الى قسمين لانه اما ان يكون ناشئا عن صعوبة تصور النازلة وتعيين ما ينطبق عليها من النصوص المتجاذبة لها او يكون ناشئا عن قصور المتوظفين أو تقصيرهم اما القسم الاول فلا يتشكى منه الا الجاهل او المتجاهل وذلك ان اعطاء النوازل حقها من التأمل حتى يتضح عند الحاكم وجه الحكم يستدعي فسحة ضرورية لفهمها على الوجه المطلوب وتلك الفسحة المتفاوتة بتفاوت النوازل في التشعب من لوازم البشرية في حق كل من الحاكم والمحكوم عليه اذ الحكم سواء كان مبنيا على القواعد الشرعية او القوانين العقلية لا يكون حكما معتدا به الا اذا كان مسبوقا بأخذ المحكوم عليه مهلة لتحرير حججه التي يدافع بها عن نفسه وأخذ الحاكم مثلها لامعان النظر فيها

وتعيين ما ينطبق من الاصول عليها فالحاكم اذا نقص من احدى الملتين شيأ فقد ظلم المحكوم عليه ونفسه وحيث كان التطويل المشار اليه طبيعيا للنوازل ومما تعاضد على لزومه الشرع والعقل يسوغ لنا أن نقول انه لا منشأ للقدح به فى التنظيمات الارادة تنفير الاهالى منها بتحسين ما تعودوه من حكامهم السياسية الذين كثيرا ما ينشر لديهم من النوازل ما لو نشر لدى احذق القضاة لاحتاج فى تصوره الى عدة أيام فيبادرون الى فصلها فى عدة دقائق بحكم لا يتعقب بل لو فرض انترخيص منهم فى تعقبه لما أمكن ذلك حيث لم يكن الحكم مسجلا بظهير لان التعقب يستدعى استناد الحكم المتعقب الى شئ من الادلة يمكن اطلاع المتعقب عليه بحيث يجد محلا للتخطئة فى تنزيل الحكم أونحو ذلك اذا كان الحكم مسجلا وما يصدر من هؤلاء حكم شفاهى غير معلل باستناده الى شئ فى الخارج فهو لا يخلو اما أن يكون أمرا اتفق فيا يحسب ما يسنح لاحدهم فى ذلك الوقت ولذلك ترى كثيرا من النوازل متفقة فى المعنى وأحكامها مختلفة أومستندا الى دليل لا يتجاوز صدر ذلك الحاكم ولا يمكن الاطلاع عليه وفى الحالتين لا يمكن التعقب ثم انا لا ننكر أن يقع فى ابتداء العمل بالتنظيمات شئ من التطويل زائد على المقدار الطبيعى ناشئ عن عدم التعود بها والتمرن عليها لكن نرى الخطب فى ذلك سهلا لانه مما يزول باعانة الله فى أقرب وقت عند حصول ملكة التجريب وتخفيف اعمال الحكام فى الاحكام الخفيفة ارتكابا لاخف الضررين وتحريض الدولة سائر موظفى السياسة على المبادرة باتمام ما أمروا به من جلب المدعى عليه ونحو ذلك مما تتوقف عليه الاحكام حتى لا يبقى من أسباب التطويل الا ما يستدعيه حال النازلة على انا نقول تنازلا مع هؤلاء المعترضين

ان

ان الغرض من التنظيمات ليس محصورا فى فصل النوازل الشخصية على وجه الانصاف انما أمول منها بل هنالك مصالح أخرى من أهمها ضبط كليات السياسة القابض لايدى الولاة عن الجور فأين مضرة التطويل فى النوازل الجزئية من مضرة اطلاق أيدى أولئك الولاة فى التصرف فى الابدان والاعراض والاموال فهذه الشبهة على فرض نهوضها لاتنتج الا تعطيل مجالس النوازل الشخصية أما ضبط أصول السياسة الذى هو أساس خير المملكة فلا نظن دليلا ينهض على تعطيله بوجه من الوجوه وأما القسم الثانى فظاهر انه لا يقدح به فى حسن التنظيمات فى نفسها وانما يتوجه التشكى من مضرته على الدول حيث لم تمعن النظر فى أحوال المتوظفين وتمحنهم بمزيد المراقبة والتجربة

وبيان ذلك انا نرى المتوظفين فى الممالك الاسلاميه على ثلاث فرق الفرقة الاولى يستحسنون ترتيب التنظيمات استحسانا صادقا ويؤثرون ماتنتجه من الهمة والحرية وتوفير مصالح الرعية على ماعسى أن يكتسبوه بالاستبداد من المغنم الخصوصية الفرقة الثانية يجهلون مصالح التنظيمات بحيث لايرون كبير فرق بينها وبين السيرة الاستبدادية بل يعدونها من بدع آخر الزمان ويؤثرون عليها البقاء على ما كان ولا منشأ لذلك الا القصور وعدم الاطلاع على نتائج التنظيمات فى غالب المعمور الفرقة الثالثة لايجهلون مصالح المنظمات وتوفيرها لخصب البلاد والدولة ولكنهم يؤثرون على ذلك فوائدهم الشخصية التى تتوفر لهم بالاستبداد ولا منشأ لذلك الا نقص الديانة والهمة الانسانية وعدم ملاحظة العواقب الدنيوية والاخروية اذ تمهد هذا فنقول ان التنظيمات وان بلغت بحسن الترتيب والتهذيب غاية المطابقة لمقتضى

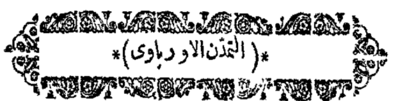
الحال لا تظهر فائدتها المقصودة من تأسيسها الا اذا كان المكلفون باجرائها من الفرقة الاولى فهم الذين توكل مصالح العباد الى أمانتهم ويعتمد في تأسيسها وتمشيتها على اعانتهم وأما الفرقتان الاخيرتان فلا يحصل من تكليفهما الا خلاف المقصود لاسيما فرقة الثالثة لمزيد انبعاث همتها الى تعطيل التنظيمات فعلى الدولة التي عزمت على تأسيسها اذا علمت ما ذكر من أحوال الفرقتين المذكورتين أن لا تنيط بأمانتهما حفظها ولا ادارتها حتى يثبت عندها بالتجارب صدق رجوع الاولى الى استحسانها بالقلب والقالب وايثار الاخيرة المصالح العمومية على الحظوظ الشخصية واكتسابها المروءة الانسانية المانعة من قبول الانسان خطة لا يباشرها بصدق نية وبالجملة فاسناد الشئ الى غير أهله مقتضى زواله من أقوى موجبات اختلاله وضمحلاله وأما الشبهة الرابعة وهي اقتضاء التنظيمات لمزيد الضرائب على المملكة لاجرائها فان هذا القائل المسكين لو علم ما ينشأ عن حالة الاستبداد وحالة التقيد بالتنظيمات لما صدرت منه هذه القولة الوهمية المبنية على عكس القضية فان حالة الاستبداد هي التي تقتضي كثرة الضرائب اذ يؤخذ فيها اللازم وغير اللازم ليصرف فيما هو في الغالب غير لازم بخلاف حالة التقيد فانه بضبط الدخل وصرفه في خصوص الامور اللازمة لا تتكلف فيها أهل المملكة الا بضرائب تسمح بها انفسهم حيث يرون لزومها وصرفها في مصالح وطنهم فاذا قابلنا ما يلزم صرفه على اجراء التنظيمات بما ينقص بها من المصاريف والحظوظ غير اللازمة التي لم تكن محدودة قبل التنظيمات بعدد ولا ضابط بمعيار تقطع بما ترفع بها من المظالم التي لا تقف بدونها عند حد لم يبق للمنصف شك في أن التنظيمات على فرض كثرة خططها من أقوى أسباب الاقتصاد

والتوفير

والتوفير لاسيما والمباشرون لاستخلاص الجبايى متقيدون بالقوانين أيضا فشتان بين حالة المستبد الذى يأخذ و يعطى بمقتضى الشهوة والاختيار وحالة المتقيد بالقوانين الذى يفعل ما ذكر بمقتضاها متوقعا تعقب آراء كثيرة بجعل من تمثيلها بمنزلة القاصر فى تصرفه فضلا عن الخائن فيه فبان بهذا ان المصاريف الباهظة التى تكلف المملكة ما لا طاقة لها به انما تكون حالة الاستبداد وان الاقتصاد الذى هو منشأ خيرها انما يحصل بضبط سائر التصرفات بقيود التنظيمات وفى هذا المقدار كفاية لمن تبصر فى الفرق بين الحالتين ولو أطلقنا عنان القلم فى بيان حال بعض الدول فى مصاريفها وفى سيرة المباشرين لها قبل تأسيس التنظيمات ومعها و بعدها حين تيسر تعطيلها لاهل الاغراض والشهوات من ارباب الخطط ورجعوا للتصرف بلا قيد ولا احتساب باعانة أمثال هذا القادح لتبين له ان قلة معرفته بنتائج التنظيمات هى التى غرته واغرته على القدح فيها بمثل ما أسلفناه وعلى اعانة الساعين فى تعطيلها لفرائدهم الخصوصية المضرة بالدولة والمملكة لكن سعة مجال الكلام فى ذلك تخرجنا عن المقصود * هذا واذا كانت الدولة العثمانية التى هى مركز الخلافة الاسلامية مع ما أشرنا اليه سابقا من العوائق الخاصة بها لم تزل مجتهدة فى رفع تلك العوائق اجتهادا يرجى منه تمام نجاحها بتأسيس ما يتم به خيرها وخير ممالكها وحفظ حقوق رعاياها فغيرها احرى وأولى لا تتعاطى تلك العوائق عنها فلا عذر لملوكها سبب قوى فى الامتناع الاحب الاستبداد الموصل للشهوات ثم نقول كما كان ترتيب التنظيمات واجبا على من تقدم مراعاة حال الوقت فمن اللائق أيضا ان يدعى من الدول الاوروباوية المتمدنة حب الخير للنوع الانسانى

ان يعينوا في هذا الشان ولو بالكف عن التعطيل خصوصا من له فائدة في دوام استقلال الامة الاسلامية هذا ما دعت الحاجة الى تحريره من أسباب التقدم والتأخر للامة الاسلامية ملخصا جله من الكتب الاسلامية والافرنجية وبه يعلم من لا خبرة له بأحوال الاسلام من الاوربا ويين وغيرهم ما كان للامة من التقدم في المعارف وغيرها وقت نفوذ الشريعة في أحوالها ودخول الولاة تحت قيودها وان الشريعة لا تنافي تأسيس التنظيمات السياسية المقوية لاسباب التمدن ونمو العمران كما يعتقده الكثير ممن ذكرنا حتى صاروا يدرجون ذلك في صحف أخبارهم ومحدثات تآليفهم ولا سبب لذلك يمكن اعتذارهم به عن سريان ذلك لاعتقادهم الا ما يشاهدونه في ممالك الاسلام من اختلال التصرفات والاحكام وما نشأ عنه من سوء حال الرعايا وهذا ونحوه من مضار تقصير الامراء في حماية الشريعة واستبدادهم بالتصرف بمقتضى شهواتهم مع اغفال العلماء القيام بما أهلهم الله له باعراضهم عن مقتضيات أحوال الوقت كما أشير اليه سابقا ولا يخفى ان البقاء على هذه الحالة مما يعظم خطره وتخشى عواقبه سمعت من بعض أعيان أوربا ما معناه ان التمدن الاورباوي تدفق سيله في الارض فلا يعارضه شئ الا استاصلته قوة تياره المتتابع فيخشى على الممالك المجاورة لاوربا من ذلك التيار الا اذا حذوه وجروا مجراه في التنظيمات الدنيوية فيمكن نجاتهم من الغرق وهذا التمثيل المحزن لمحب الوطن مما يصدقه العيان والتجربة فان المجاورة لها من التأثير بالطبع ما يشتد بكثرة المخالطة الناشئة عن كثرة نتائج الصناعات بحيث تجبى لاخراجها والانتفاع بأثمانها وهو سبب ثروتهم كما تقدم ولنقتصر على هذا المقدار من الاشارة الى أسباب التقدم

والتأخر فى الامة الاسلامية ونرجع الى ذكر أطوار التمدن الاوربأوى من أيام الامبراطور شارلمان الى هذا التاريخ على وجه اجمالى يقتدر به على الاحاطة بأنواع التمدن المكتسب بالمعارف ويستفيد منه من يريد معرفة الاشخاص الذين اشتهروا بكشف كنوز الطبيعة وأسرار التهذيب ورسوم معالم السياسة



(التمدن الاوربأوى)

اعلم ان الامبراطور شارلمان الذى أسس دعائم السياسة والاحكام كان أشهر ملك ظهر بأوربا من وقت سقوط الدولة الرومانية الى سقوط دولة الاغريق التى كان تحت مملكتها القسطنطينية العظمى وهو الذى أدخل العلوم والاعمال لمما لكه وكان يفنى غالب أوقاته فى قراءة العلوم وكان مجلسه محفوفا بالعلماء وأسس بباريس مدرسة جامعة لسائر المعارف وبمثل هاته المآثر حصل له من السمعة فى أقطار الارض ما استمال الخليفة هارون الرشيد الى محبته ومهاداته بتحف منها منفالة لم تزل الى الآن فى أحد قصور فرنسا ثم بعد وفاة الامبراطور والمذكور وفقدان تدبيره تعطلت تلك المصالح وتنازلت أوربا وبقيت مغمورة فى دجى الجهل مدة ستمائة سنة وفى هاته المدة كانت موطئا لاقدام البرابرة الذين كانت دولهم تتداول عليها ومع ذلك الفشل التام فان أهل الكنيسة منهم كانوا محافظين على كتب المعارف وعلى اللسانين اللذين لولاهما لا انتفع بتلك الكتب وهما اليونانى واللاتينى فالناس ممنونون لهم بذلك ثم فى القرن الحادى عشر الذى هو خامس قرون الهجرة النبوية ظهرت

مبادى علوم وصناعات وهندسة فى الابنية فانشئت بها هياكل فى الناحية الغربية من اوربا واخذ علم الفلسفة فى النمو بين محاورات كلامية ومنازعات جدلية وظهر حزب الفرسان الذين اشتهروا باسم الكفاليير وهم جماعة من وجوه الناس تحالفوا على أن يحاربوا فى الله للمدافعة عن حرية الفتوة والمستضعفين من سائر الاهالى وأن لا يلاحظوا فى أفعالهم لاسيما المحاربة الا مقتضيات الشرف الانسانى وعلو الهمة ولو مع أعدى الاعادى مثلا يرحمون من يسترحمهم ولا يجهزون على جريحهم ولا يبتزون سلب قتيلهم ومن أواخر هذا القرن اى أواسط القرن الثالث عشر كانت حروب الصليبين مع المسلمين لافتكاك بيت المقدس وقطع استيلائهم على الامم فى زعمهم وانما أشرنا لهاته الحروب والفرسان لبيان ما لها من الدخل فى التمدن الاورباوى فان مؤرخيهم يقولون ان تلك الحروب وان هلكت فيها نفوس عديدة وأموال غزيرة بدون الحصول على المقصود بالذات فانها أعقبت نتائج نافعة لهم منها انهم من ذلك الوقت شرعوا فى ترتيب العساكر وتعلموا بمواصلتهم لاهل المشرق صناعة التجارة والزراعة ونحو ذلك وتخلقوا باخلاق الحضر وتعودوا بالاسفار لاستكشاف أحوال الاقطار فاطلعوا على أحوال آسيا المتوسطة وأحوال الصين كما ذلك مبين بتأليف ماركو بولو وبالجملة فبالسبب المذكور وهو مخالطة الاورباويين للامة الاسلامية المتقدمة عليهم فى التمدن والحضارة كان ابتداء التمدن عندهم لاسيما فى القرن الثالث عشر ثم تهذب حتى وصل الى ما هو مشاهد اليوم وانتهت اذ ذاك رئاسة العلوم والآداب والفلسفة الى صان برنار

بفرانسا

بفرنسا وصان توماس بايطاليا والبرت الكبير بالمانيا وريموندو لولو باسبانيا وجن دونسكوت بانكلترة وظهرت الشعراء والمهندسون والكنائس الاصوليه والهيا كل الفخيمة المنسوبة للقرون المتوسطة وفى القرن الرابع عشر نالت تلك الامور شرفها خصوصا فى ايطاليا فان دانتى حرر اللسان الطليانى وقرره فى شبه اراجيز يخلد ذكرها وجيوتو وتشيابوى احيا صناعة الدهن وبترارقا وبكاتشو سلكا طريقة دانتى فى النظم والنثر ثم فى اواسط القرن الخامس عشر وهو الوقت الذى لاينسى لغرابة حوادثه اخترع غتمبرغ من اهل ميانس بالمانيا طبع الكتب الذى حصل به من تنمية مواد العلوم وسرعة انتشارها فى اقطار الارض مايغنى فيه العيان عن البيان وأوّل ماطبع منها كتاب فى اشعار اللغة اللاتينية التى عاد الى استعمالها اهل ايطاليا وتكاثرت بها اشعارهم بعد ان تناسوها وهى وان لم تأخذ مأخذها فى التوصل بها الى المعانى الدقيقة واللطائف البديعة فقد رجعت الى ماكانت عليه من الطلاوة وحسن السبك ثم أخذ التمدن فى الترقى بمدارج العلوم والاعمال وكانت المزية فى ذلك لجماعة الميدتشى الذين كانوا رؤساء الدولة الجمهورية بفلورنسة ثم صاروا أمراءها فهم الذين مهدوا سبلها للناس وكان اشتهارهم بذلك فى القرن السادس عشر المعبر عنه بالقرن الكبير الذى كانت ايامه تضاهى بايام الرؤساء أيام اغسطوس أول قياصرة الرومان فى الاشعار وحسن هندسة البناء وبديع اشكاله اقتداء بالرومانيين الذين اقتدوا فى ذلك باليونان ومن حوادث القرن الخامس عشر

ان جماعة المدشى المشار اليهم والبابا ليون العاشر الذى هو منهم بحثوا فى الخزائن عن الكتب القديمة وطبعوها لاستكثار نسخها وجعلوا عليها تعليقات نافعة وملاحظات غريبة وبذلك ارتفع عن محاسن الاقدمين القناع الذى تكاثف بتطاول السنين وفى تلك المدة ظهر الشاعران أريوستو وتاسو اللذان أشهرا اللسان الطليانى المستعمل الآن ودها فى الطبقة الاولى من مشاهير تلك اللغة فأولهما تخلد ذكره باختراع معان لم يسبق اليها فى الفاظ مهذبة مستعذبة والثانى نال شهرة أميرس الشاعر اليونانى وفرجيل الشاعر اللاتينى وبالجملة فاللسان الطليانى أخذ فى ذلك الوقت مأخذه من السلاسة وحسن السبك وألفت به تآليف عديدة فى فنون شتى ومن مشاهير القرن المذكور مكيافلى الذى كان أول من بين القواعد السياسية بعد سقوط الدولة الرومانية وغو يتشر دينى الذى بلغ بجودة الفكر وحسن التعبير الى اتقان التصنيف فى التاريخ وفرا باولو الذى اشتهر بالمدافعة عن حرية الوطن بقلم غيور منصف فى ضد سياسة الباباوات الدائرة رحاها على ايثار الشهوات وفى ذلك الوقت ظهر بمملكة اسبانيا التى كانت اكتسبت من المسلمين أنواعا من الظرف كالفروسية واللعب بالرماح وتعاطى المعانى الغريبة من الاشعار الناظمان المجيدان لوبس دفيغا وكالدرون اللذان أظهرا من التراكيب الشعرية ما حسن القاؤه فى المجامع المعدة لتهذيب الاخلاق المسماة عندهم بالتياطرات كما ظهر فى ذلك الوقت عند الانكليز الناظم الشهير شكسبير وهو وان لم يخل كلامه عن الهفوات فله

النفيس من جوهره ويتوصل بفصاحته الى الكشف عن كنه ما يروم وصفه والاحاطة بكيفيته الحسية والمعنوية لاسيما في وصف الحروب بحيث ان سامع كلامه يكون كالمشاهد لما يصفه وأمّا أهل شمال أوربا فلم يشتهروا الى ذلك الوقت بشئ من اعمال الفكر غير أن منهم من لا تنكر منته على العرفان مثل كبرنيك من اهل بولونيا المولود سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة وألف وهو الذى حرّر القول بأن الشمس فى مركز العالم وان الارض والكواكب تدور حولها قيل وليس هو أول قائل بذلك وانما الاول فيلولاوس أحد تلامذة فيثاغورس وذلك قبل وجود كبرنيك المذكور بألفى عام لكن وقع الانفصال على أن كبرنيك هو الذى ينبغى أن ينسب اليه مزية الابتكار لهذا القول وان انتفع فى الاهتداء اليه بقول فيلولاوس المذكور وممن حرّر الدليل على تلك الدعوى بما يقرب من المشاهدة غليلاو الطليانى وأعانه على ذلك ما اخترعه ميوس من اهل هولاند من آلة البلور التى تكبر الاشياء فكانت مرآته تكبر الشئ مائة وستين مرة زيادة على مقدار جرمه ثم تهذبت تلك الآلة حتى صارت تكبره من ألفين الى ثلاثة آلاف وأكثر ولم تزل تلك الدعوى تترجح عند اهل أوربا الى أن صارت مسلمة لديهم وبواسطة تلك الآلة اطلع غليلاو المذكور على كواكب لم تكن معهودة وهو وتلميذه توريشلى أول من عرف وزن الهواء وان طلوع الماء فى الطلنبة مسبب عن ضغط الهواء لسطح الماء وان نهاية صعوده اثنان وثلاثون قدما حيث ان قوة عمود الهواء النازل على سطح الماء لا تتجاوز المقدار المذكور فلا ينجذب

بهـا المانيا الى أكثر من ذلك والحاصـل ان اهل ايطاليا اغتنموا
فى ذلك الوقت شهرة بالآداب والصناعات المستظرفة المسماة عندهم
بوزار وهى صناعة الدهن والنقش وهندسة البناء والموسيقى وحصـلوا
على ما أمكنهم تحصيله من العلوم والفلسفة وأمّا المانيا فقد اشتهر فيهـا
تيخو براهى وكو بلر فالاول أفنى عمره وماله فى طلب العـلم واقتناص
شوارده حتى سمى بالمحسن الى العلم والثـانى صرف الهمة الى علم الفلك
حتى قيل له صاحب الاحكام وأمّا انكلترة فانهـا صـارت بقرب ذلك
العهد ذات يد فى العلوم الرياضية والحكمة الـكلامية وممن اشتهر فيها
فرنسس باكن ذو الفكر الوقاد والجـد والاجتهاد وقد صحت تسمية
تأليفه بحالة العلوم الجديدة واستند فى دعاويه فيه الى التجارب المفرغة
فى قالب الاسلوب الفلسفى حتى قيـل ان فن الطبيعيات صار بقواعد
الـكتاب المذكور كما ينبـغى أن يكون وفى القرن السادس عشر امتاز
اهل فرنسا بعلم الاحكام الآتى بيـانه واشتهر منهم بذلك عدد كثير مثل
كوجاودوملان وميشـال دوليتال الذين عمروا مكاتب الاحكام
والمـاهر الفصيح فرنل المتسلطن فى علم الطب وامبر وازبرى أعرف
اهـل وقتـه بأحوال الجراحات وفيـات الذى اختصر كتاب
الجبر بوضع حروف نائبة عن الاعداد وصيره لعلم المساحة كالمنطق
لسائر العلوم وبيار لسكو الذى هندس بنـاء اللوفر وفلبار دلورم
الذى هنـدس قصر مودون وقصر التويلرى والاوّل والثـالث
بباريس يسكن بهما ملوكها والثـانى بقربها ثم ان فرنسا وان بلغت
فى هذا الوقت ما بلغته من التمدّن والتهذيب وفاقت أممـا كثـيرة ممن
تقدمها الا أنهـا لم تضـاه نظائرها حيث لم يكن لسانها فى ذلك الوقت خالصا

من

من الشواتب ومن مشاهيرها فى تلك المدة أميو ومارو فالاول فى الانشاء والثانى فى النظم تميزا بسلامة السليقة وقلة التعقيد ومنهم ربلى متقن صياغة مثالب الهجو ومونتان الفيلسوف الذى سهل طرق المعانى واداءها بألفاظ رائقة وشرح ماهية الانسان غير محمول بعين الرضى على تحسين مساويه ولا بعين السخط على تقبيح محاسنه وفى هذا القرن اشتهر بايطاليا بين أرباب الصناعات رفايل وميكلانج وليوناردو داوينشى وأشخاص آخرون فى صناعة الدهن والنقش والبناء فبهم وبتلامذتهم تجدد البوزار فى سائر نواحى أوربا وفى القرن السابع عشر بلغت العلوم الرياضية والادبية فى أوربا الى الغاية القصوى وذلك بكثرة العلماء الذين نمت بهم المعارف حتى صار من كان يعد من مشاهير العلماء فى القرون الماضية يعد من عامتهم فى هذا القرن خصوصا أهل فرنسا الذين ترقوا فى سائر المعارف وتقدموا من عداهم من أهل أوربا فى الفصاحة نظما ونثرا وفى صناعة البوزار المتقدم بيانها فمن مشاهير هذا القرن باسكال المشتهر بفن الحساب والطبيعيات والانشاء ألف كتابا سماه بما ترجمته مكاتيب اهل القرى وهو من أشهر ما ألف فى الارسال وتعرض فيه للقدح فى سيرة الجزويت حزب يعرف باليسوعية دأبهم جلب الناس بكل وجه ممكن الى الديانة النصرانية والمدافعة عن السياسة البابوية ومنهم دكارت المعدود فى الطبقة الاولى من مخترعى العلوم الرياضية باستعمال قواعد الجبر فى المساحة واتقان التصرف فى علم الفلسفة وهو من اشهر العلماء الذين هذبوا اخلاق البشر ثم بوردلو وماسليون اللذان أظهرا فصاحة لم تكن لاحد قبلهما من خطباء ديانتهم ثم بوسوى الذى بلغ

فى حسن التأبين وفى خطبته على التاريخ العام السائرة مسير المثل عند اهل اوربا درجة لم يبلغها احد بعده ثم بوالوا الذى بين قواعد الشعر عندهم ثم لابروبار المعدود من السابقين فى علم التهذيب ثم فنلون صاحب التأليف المشهور المسمى تلماك الجامع لاسباب التهذيب البشرى ثم كرنيل وراسين اللذان لايقاسان فى التراجيديا الاعشاهير اليونان وهى محاكاة الحروب والوقائع والكوميديا وهى محاكاة أمور فى قالب الهزل ثم موليير فى الكوميديات ولافونتين فى الامثال تقدما من كان قبلهما وفى القرن المذكور ظهر بالمانيا الحكيم ليبنتس وكان له شهرة فى علم التاريخ والطبيعيات لاسيما الرياضيات والفلسفة فقد كان له فيهما اليد الطولى وفى هذا القرن تميز علماء الانكليز عن غيرهم باتقان علم الهيئة والفلك فمنهم هالى الذى شرح خواص الهواء وأسرار مدّ البحر وجزره واسرار المغناطيس وحركات ذوات الاذناب وارتكاب المشاق والاخطار فى تطلب العلم من نوازح الاقطار حتى بلغ جزيرة صانت الآن فى البحر المحيط ورسم على صخور رهانو يطة نجوم القسم الجنوبى من الهيئة وبذلك ارتفع شأن رصد غرينتش فى انكلترة ثم المنجم فلامستيد الذى بين ملاحظات عديدة فى علم الفلك تلقاها الناس بالقبول ثم نيوطن المشتهر اشتهارا أنسى به ذكر سابقيه وله تأليف كبير أحدث به فى الفلسفة تغييرا غريبا وقع من الناس موقع الاعجاب وفى ذلك الوقت ظهر من شعراء الانكليز درايدن وبوب ومن كتبة الانشاء أدسون وفى القرن الثامن عشر حازت فرنسا خمسة اشخاص من مشاهير الكتبة بذلوا الجهد فى ايضاح طرق الفلسفة وتشييد مبانيها وهم فونتنيل الذى انسجمت

مكاتيبه فيها ثم بوفون مشفع افلاطون و بلين الذى كساعلم الفلسفة رقة التعبير فى كتابه الذى خلد ذكره وأعرب عن رقة طبعه ودماثة اخلاقه ثم مونتسكيو الذى صرف همته الى كتب السياسة وأبانت تصانيفه عن غاية معرفته بها وكفى شاهدا على ذلك ما كتبه فى السبب الذى كبرت به الدولة الرومانية وتعاظمت والذى سقطت به وانقرضت وهو كتاب عجيب يحتوى على تعليقات صادقة وعبارات محررة راشقة وكتابه الآخر المسمى بحكمة القوانين الذى بين فيه الحقوق الانسانية وقسمها الى ثلاثة أقسام أولها الحقوق المعتبرة بين الامم فى خلطتها السياسية والتجرية وثانيها حقوق الدول على رعاياها و بالعكس وثالثها حقوق الاهالى فيما بينهم ثم قسم حالة الدول الى ثلاثة اقسام ايضا الاول الدولة الوراثية خلفا عن سلف المطلقة التصرف بلا قيد الثانى الدولة الوراثية كذلك المقيدة بالقوانين الثالث الدولة الجمهورية المقيدة بالقوانين أيضا والجمهورية عندهم كناية عن انتخاب الامة رئيسا لدولتهم يتصرف فى ادارتها بمقتضى القوانين مدة حياته أو لمدة معلومة ثم ينتخب غيره و بين ماينشأ من الخير والشر عن الاحوال الثلاثة وهو معدود عند أهل اوروبا قانونا صحيحا فى الاحكام ومن تمثيلاته البديعة تشبيه المستبد فى تصرفاته بمن يتوصل لاجتناء الثمرة بقطع الشجرة من أصلها وله فى غير ذلك تآليف عديدة تلقاها الناس بالقبول و رابعهم دلمبير صاحب التاليف المحلى بقلائد القواعد الحاوى باوضح بيان ما كاد يأتى على سائر الفوائد وخامسهم كنديلياك الذى بسط اشعة التحقيق على تآلف

لوك الانكليزى فى علم الفلسفة ومن مشاهير القرن الثامن عشر
ولتير وهو ممن اخذ راية الكتابة باليمين والشمال واشتهر فى سائر
فنونها اشتهار الدجال فى الاجيال ولولم يحمله انحلال العقيدة على
عدم احترام الشرائع والديانات لكانت شهرته اتم والنفع بمعارفه
اعم ومنهم جانجاك روصو وهو نظير واتير فى الشهرة وله من حسن
التعبير مالا تستقر معه الاوهام وهذان الكاتبان المجيدان هما
اللذان انشأ ثورة أهل فرنسا سنة تسع وثمانين وسبعمائة والف
الموافقة لسنة مائتين وألف هجرية وهيأ اسبابها واستعجلا وقوعها
ومنهم جان باتيست روصو صاحب الاشعار والمعانى الرائقة ومنهم
لوساج مؤلف جلبلاس الكتاب المحتوى على المقامة الفلسفية الذى
هو من أحسن ما الف فى بابه ومن مشاهير هذا القرن لناوس من
أهل السويد اشتهر فى الطبيعيات وفيه ظهر بالمانيا الشاعران
غوتى وشلر فالاول فاق اقرانه فى محاسن الآداب والثانى استحق اسم
المجدد امباطرات الالمان فانه ركب العابا معتبرة ينشد فيها مستظرفات
الاشعار وله تآليف فى التاريخ شاهدة بتقدمه فى ميدان الافكار
كما ظهر فيه بانكلترة المؤرخون الثلاثة الذين تشرف بهم وطنهم وهم
غيبون وهيوم وروبرتسون ثم ظهر بها أيضا آدم سميث الذى فاق
اقرانه فى علم الرياضيات والاقتصاد السياسى والمعلم الطبيعى بانكس
والجراحيان وليم هنتر واخوه جن وكاوندش الذى حلل اجزاء الماء
والفلكيون برادلى وهرشل ويجمن فرانكلن الذى خلد اسمه
ببيان الامور المتعلقة بالجاذب المغناطيسى ومن مشاهير انكلترة
فى القرن المذكور اركرايت الذى اخترع آلة غزل القطن

ثم

ثم خرج من صف العامة ثلاثة اشخاص استنبطوا لهذه الآلة ما كسبها قوة غير محصورة وهم سميطن وفلطن وجامس وات وهذا الاخير هو الذى اخترع الكيفية العجيبة فى الانتفاع بالآلة البخارية التى اخترعها أولا نيوكمن كما ظهر بهذا القرن الخدمات العجيبة الهائلة على يد المهندس برادلى فتضاعفت طرق المواصلة بانكلترة وفتحت الخلج العديدة فى الاماكن التى كانت معطلة و بذلك تمت نتائج الايدى واتسعت دوائر متجر الانكليز وثروتهم وارتفع شأن السياسة فمن النتائج كثرة استخراج معادن الارض بسهولة المناولة والمواصلة وكذا جلب القطن والكتان وغيرهما واصطناع الاقمشة منهما فى اسرع وقت كل ذلك بمعونة الآلات المذكورة وقد كبرت بلدانها الصغيرة لاتساع نطاق المتجر فيها حتى صارت من البلدان المعتبرة وهاك مثالا جزئيا تعلم به التبديلات الخطيرة الواقعة فى احوال المتجر وهو ان قيمة ما كان يخرج من سائر بلدان انكلترة من القطن المصنوع لم تكن فى أوائل القرن الثامن عشر تتجاوز خمسمائة الف فرنك فى السنة وفى اواسط هذا القرن بلغت قيمة ما يخرج من ذلك فى السنة خمسمائة مليون فرنك ولنمسك عنان القلم هنا حيث بلغنا الى القرن التاسع عشر الذى صار فيه المشاهير بالعلوم والصناعات اكثر من ان يحصوا والساعون فيما يزيد نوع البشر تحسينا اجل من ان يضبطوا ولم يزل الملوك يرغبون الناس فى اسباب التمدن ويتشطونهم بالجوائز وعلامات العناية وبوضع صور مشاهيرهم بمجامع العامة لتوفير دواعى البحث عما يمكن ان ينفع جنسهم و يخلد ذكرهم

(ملخص المكتشفات والمخترعات)

فى أوائل القرن الرابع عشر استعمل اهل اوربا فى سفنهم البوصلة المنقولة عن العرب كما تقدم وكشف اهل البرتغال عدة جهات من شطوط افريقية الغربية وأحاطوا بالجهة الجنوبية من راس الزعزعة المسمى من ذلك الوقت برأس الرجاء الصالح ووجدوا بذلك طريق الهند فى البحر واحدثوا فيها عدة مستعمرات وفى سنة ست وثلاثين واربعمائة وألف اخترع المطبع بالمانيا وفى سنة ست وستين واربعمائة والف وجدت فبريكة الحرير بمدينة ليون من فرانسا وفى سنة اثنتين وتسعين واربعمائة والف كشف كريستوف كولومب أمريكا وفى القرن السابع عشر حدثت فبريكة القطن بانكلترة وفرنسا وظهرت المرآة التى تكبر الاشياء المتقدم ذكرها وظهرت البوسطة أى بيث المكاتيب وتحرر ميزان الهواء بالوجه المتقدم وفى سنة ثمان واربعين وستمائة والف ظهر استعمال الكينا بأوربا وفى سنة سبع وستين وستمائة والف استعملت فبريكة نسج البسط الرفيعة بباريس وفى سنة اربعين وسبعمائة والف انشئت فبريكة الذكير المذاب بانكلترة وفى سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة والف اخترع فرنكلان جواذب الصاعقه التى تجذب القوة الكهربائية من السحاب وتدخل بها فى الارض وفى سنة ستين وسبعمائه والف تأسس بباريس محل تعليم الصم البكم والعمى القراءة والكتابة والرياضات ثم اقتدى بذلك بقية ممالك أوربا حتى انه يوجد اليوم بها من الاماكن المخصوصه بتعليمهم نحو مائه وخمسين

وكيفيه

وكيفية ذلك فى الاصم الابكم ان يروه صور الحروف ويصطلحوا معه
على تخصيص كل حرف منها باشارة مخصوصة فى الاصابع ثم يحضروا له
الشئ المراد تعريفه اياه ويكتبوا اسمه له على مقتضى تلك الحروف
الاشارية فبهذه الواسطة يصير قابلا للتعليم لتيسر الكلام معه بسهولة
وفى الاعمى يجعل حروف له ذات اجرام فبذلك يقبل تعلم القراءة والكتابة
واذا اريد تعليمه الجغرافيا ترسم له الخريطة اجراما محسوسة فيسهل
تعليمه اياها جدا حتى يصير بحيث متى طلب منه تعيين محل من الارض
او بلد من البلدان وضع يده عليه بدون مشقة وفى سنة ست وسبعين
وسبعمائة وألف اخترع الطبيب جنر الانكليزى من مدينة بركلى
كيفية تلقيح الجدرى وقد تنازع مؤرخو الانكليز والفرنسيس
وأميركا فى اختراع الآلة البخارية فكل يدعى ذلك لاهل مملكته
والذى حرره اراغو الفلكى الفرنساوى هو ان الماكينجى هيرون
الاسكندرانى فكر فى قوة البخار والمنافع التى يمكن تحصيلها به
وكان ذلك قبل الميلاد المسيحى بمائة وعشرين سنة لكن بقى هذا الرأى
عقيما عدة قرون ثم فى سنة ثلاث واربعين وخمسمائة وألف من الميلاد
المذكور كتب بلاسكو دى غراى الاسبنيولى الاصول التى يمكن
حصولها من تلك القوة فكر فى استعمالها وكتب مثل ذلك سلومون
دوكوس الفرنساوى فى سنة خمس عشرة وستمائة وألف ثم فى سنة
ثلاث وستين وستمائة وألف اشتغل بهذا الشان ورشستر الانكليزى
الا أن ما انتجته فكرته لم يكن كافيا فى حصول الانتفاع بتلك القوة
فى سنة تسعين وستمائة وألف فكر فى شأنها المهندس دنيس بابين

والفا الى أن تم واستعمل فى سنه خمس واربعين وثمانمائه وألف وقد شاع العمل به الآن وفى سنه ثلاث وثمانين وسبعمائه والف ارتفع فى الهواء بالبالون مونغرلفى الفرنساوى والبالون قبة من الحرير مصنوعه بكيفيه لا ينفذ بها من مسامها الغاز الذى هو ألطف من الهواء فتملأ القبه بتلك المادة فتصعد فى الجو لصيرورتها أخف من الهواء وفى سنه اربع وتسعين وسبعمائه والف اخترع ولتا البيل الذى يستعمل للتذويب وللتغراف الكهربائى وفى سنه احدى وثمانمائه والف اخترع جكار الحائك آلة النسج التى تنسج بدون واسطة اليد وهذه الآلة اورثت تبدلا كبيرا فى امر النسج وارتفع بها شأن فبريكات ليون بفرانسه التى تصنع الاقمشه الحريريه وغيرها ولذلك رفع اهلها صورة المخترع المذكور ببطحاء المدينه اظهارا لممنونيتهم له وفى سنه ست عشرة وثمانمائه والف ظهر بلندرة حادث اسراج الغاز كما ظهر بها فى السنه المذكورة السنيوغرافى وهى كيفيه تسهيل استيعاب الكاتب جميع ماينطق به اللسان السريع باصطلاح مخصوص والواضع لها رامزى من اهل سكوتلاند وفى سنه تسع وعشرين وثمانمائه والف غادرت اول كروسه تامه تجرى على طريق من الحديد وهى من مخترعات المهندس ستيونصن الانكليزى واخترع ويتصطون الانكليزى أيضا الكيفيه المستعمله فى التلغراف المذكور واخترع نيبس وداغير الفوتغرافى أى ارتسام الصورة بواسطه المرآة وبقاءها ولهذه الصناعه فوائد جمه فى الطبيعيات والفلك

ولما

ولما كان تقدم أهل اوربا فى ميدان التمدن الذى من تمائمه الاختراعات المشار اليها انما كان بتمهيد طرق العلوم والفنون وتسهيل اسباب استحصالها وكان للمملكة الفرنساوية مزيد شهرة بحسن التنظيم فى اطوار التعلم والتعليم رأينا ان نبين تراتيبها الناجحة ليقاس عليها بقية الممالك لاقتداء بعضهم ببعض فى مثل ذلك فنقول اعلم ان طبقات المتعلمين عندهم ثلاث لان المتعلم اما مبتدى او متوسط او منتهٍ وانقسام الفنون على هذه الطبقات باعتبار سهولة الفن وصعوبته فالفنون الاولية مثل علم الاخلاق وأصول الديانة والقراءة والكتابة والمفردات اللغوية وأصول الحساب والوزن والكيل واصول التاريخ والجغرافيا ومبادى سر الطبيعة والاستدلال بالموجودات الارضية ومبادى الفلاحة والصناعات وقانون حفظ الصحة واصول المساحة ورسم الارض والتصوير الخطى والالحان وكيفية تقوية الاعصاب بالحركات الرياضية فهذه الفنون الاولية تدرس فى المكاتب العمومية المقامة من الدولة أو الايالة او البلدة أو القرية وفى المكاتب المطلقة ومحال المرحمة المقامة من خصوص اشخاص من الناس وجمعيات من المحسنين واما فنون الطبقة المتوسطة التى ينتقل اليها بعد تحصيل ما يجب تحصيله من المعارف الاولية فهى علم اللغات القديمة والحادثة وعلم البيان والمنطق والفلسفة والعلوم الرياضية والطبيعية والتاريخ وجميع هذه العلوم تدرس فى مكاتب الدولة ومكاتب لاهل البلدان واماكن خصوصية ومحال صغيرة تعليم الرهبان واما الطبقة المنتهية فمنهم من يتعلم بالمكاتب العالية منهم من يحضر بجامع مدرسى العلوم والانشاء الذين يجيزون الطلبة

بعد امتحانهم بحضرتهم والجامع المشار اليها مشتغلة بدراسة العلم الالهي واحكام النوازل وصناعة الانشاء ونحو ذلك وتتنوع الى خمسة اصناف احدها يحتوى على ثمانية مجامع وظيفتها تعليم العلم الالهي ستة منها على مقتضى العقيدة الكاتوليكية واثنان على مقتضى العقيدة البروتستانية ومن شعب هذا العلم عندهم فروض الديانة وعلم الاخلاق ونظام الكنيسة والكتاب الموصوف عندهم بالمقدس واللسان العبراني والصنف الثاني يحتوى على تسعة مجامع وظيفتها تدريس علم النوازل المنقسم عندهم الى القواعد العمومية واحكام الرومان والقانون المدنى واحكام الجنايات واعمال المجالس وقياس العقوبات باحكام البلدان والقانون المتجرى واحكام الادارة العمومية واحكام مايقع بين الامم والاحكام الفرنساوية والصنف الثالث يحتوى على ثلاثة مجامع وظيفتها دراسة علم الطب المتناول للتشريح وتركيب الحيوان وتاريخ الطبيعة المتعلق بالطب وقانون الصحة ومعرفة الامراض الظاهرية والباطنية وكيفية المعالجة ومواد الادوية وعلاج الجراحات واحوال الولادة وهناك مكاتب كبار لتعليم كيفية تركيب الادوية ومكاتب أخرى للاستعداد لتعاطى فن الطب والصنف الرابع يحتوى على مجامع وظيفتها دراسة علوم مختلفة كعلم الهيئة والفلك وعلم الجبر والمساحة وعلم المكانيك أى التصرف بالآلات كجر الاثقال وعلم استعمال الآثار الطبيعية كالتصوير بالمرآة وعلم الكيمياء وعلم طبيعة الارض والنبات وتركيبه وعلم طبائع الحيوانات والصنف الخامس يحتوى على مجامع وظيفتها تعليم الانشاء وسائر العلوم الادبية وعلم الفلسفة وتاريخها وآداب اليونان والشعر

اللاتيني

اللاتيني والفرنساوى وآداب الاجانب والنحو والتاريخ قديمه وحديثه والجغرافيا وهناك مكاتب للاستعداد للفنون المذكورة و يقرأ فيها تاريخ فرنسا كالجغرافيا الطبيعية والسياسية وعلم الرسم ومن عوائدهم ان يختموا كتبهم فى المكتب العالى المشتهر بمكتب فرنسا وهناك مكتب لتعليم الالسنة المشرقية ومحل مخصوص بتعليم أخذ الاطوال ومحل الرصد السلطانى بباريس والمحل المعد لوضع الحيوانات المصبرة على اختلاف انواعها وانواع الاحجار والمكتب السلطانى المعد للخريطات الجغرافية ومكتب البوزار اى الصناعات المستظرفة ومكاتب اعمال اليد ومكتب التصوير السلطانى ومحل تعلم قواعد الموسيقى ومكتب تعليم مخاطبات التياطرات و جميع المكاتب المشار اليها تحت رعاية و زير المعارف وما عداها من المكاتب الخصوصية فانها وان كانت خارجة عن دائرة الادارة العمومية الا انها لا تخرج عن دائرة المراقبة حيث يجب تفقدها فيما يتعلق بتهذيب الاخلاق وحفظ الصحه وموافقه التعليم لمقتضى قوانين البلاد ثم ان هناك خمس جمعيات من كبار علمائهم يسمى كل منها بالاكدميه وتسمى الجمعيه الاولى أكدميه فرنسا والثانيه اكدميه الخطوط القديمه والثالثه اكدميه العلوم والرابعه اكدميه البوزار والخامسه اكدميه السياسه وتهذيب الاخلاق فوظيفه الجمعيه الاولى الاعتناء بتصفيه اللغه وتحرير أوضاعها و وظيفه الثانيه تحرير الاقلام القديمه واستخلاص الالسنه العتيقه والنظر فى الهيا كل القديمه والتواريخ و وظيفه الثالثه نشر رسائل فى سائر أنواع العلوم وهذه الجمعيه بمثابة مجلس لتحرير سائر العلوم ووظيفه الرابعه النظر فى أحوال الابنيه

والادهان والنقش والتصوير والموسيقى وهذه الجمعيه هى التى تعين من يستحق الدخول فى مكتب الوزار ووظيفه الخامسة النظر فى احوال علوم الفلسفة والاحكام والحقوق العامة والاكونومى بوليتيك اى الاقتصاد السياسى والاستاتستيك وتاريخ الفلسفه العمومى والادارة السياسيه والماليه ولكل من هذه الجمعيات تعين جوائز المؤلفين من مقدار مال أو نيشان من الصنف المعروف عندهم بالمداليا والجوائز تارة تكون من الدولة وأخرى من بعض أعيان البلد ترغيبا فى الاختراع وهنالك مكاتب أخرى لتعليم سائر العلوم والفنون الحربية البرية والبحرية وجمعيات أخرى وظيفتها الاعانه فى أسباب التقدم فى المعارف والفلاحه وسائر الصنائع منها جمعية الطب وادارة المؤزيات السلطانيه وجمعيه الترغيب فى الصناعات الاهليه والجمعيه السلطانيه المركزيه فى الخضر والنباتات المتكفلة بجلب غير الموجود منها من سائر الاقطار وتدبيره بما يكون سببا فى بقائه عندهم حتى صار بهذه الواسطه يوجد عندهم غالب ما يوجد فى سائر المعمور وجمعيه فى الجغرافيا وأخرى فى بنية الكرة الارضيه وأخرى فى حوادث الجو والآثار القديمة وأحوال الامم وأخرى فى خصوص احوال آسيا وأخرى فى الاقتصاد السياسى وأخرى فى مبادى العلوم وأخرى فى الجراحات واخرى فى تركيب الانسان وانوى فى تواريخ فرنسا كان بايالات فرنسا كثيرا من هذه الجمعيات ويوجد كثير من المدارس لتعليم كيفيات التصوير واعمال اليد وهنالك مكاتب تتعلق بالمعادن ومكتب كبير لاصول التجارة واماكن خصوصية لذلك تحت رعاية الدولة وثلاثة مكاتب سلطانيه لتعليم البيطرة ومثلها لتعليم فنون الفلاحة واثنان وخمسون

سوريا

جريا لامتحان قواعد الفلاحة والعارفون بقواعد الفلاحة متوزعون فى بلدان المملكة ومن مكاتب الفلاحة ماهو دائم التعليم ومنها مالا يفتح الا فى أوقات مخصوصة ومن تاقت نفسه الى تفاصيل العلوم والفنون المشار اليها فعليه بمطالعة الفصل الثالث عشر من المقالة الثالثة من رحلة العالم البارع الشيخ رفاعة أحد علماء مصر المسماة بتخليص الابريز الى تلخيص باريز فقد كشف فيها الغطاء عن تدبير الامة الفرنساوية حتى رفعت راية التمدن وأجاد فى ذلك وأفاد

ومن آثار اعتنائهم بتوسيع دوائر العرفان الذى هو أساس التمدن والتهذيب لنوع الانسان كثرة خزائن الكتب الجامعة لسائر الفنون وتسهيل طرق الانتفاع بها بحسن الادارة والترتيب الحاسم لمواد العوائق كما يتضح ذلك بالتفصيل الآتى ولنقتصر فى بيان كثرة الكتب بالبلدان الاوروباوية المعتبرة على ما حرره تنالى وزير المعارف العمومية بايطاليا بعد تمام بحثه عن ذلك سنة سبع وستين وثمانمائة وألف فذكر ان الموجود بخزائن ايطاليا من الكتب المجلدة أربعة ملايين ومائة وأربعون ألفا ومائتان وواحد وثمانون مجلدا غالبها من الكتب القديمة المتعلقة بالديانة وبخزائن بريطانية العظمى مليون وسبعمائة وواحد وسبعون ألفا وأربعمائة وثلاثة وتسعون مجلدا فيكون لكل مائة نفس من الاهالى ستة مجلدات وعلى قياس هذه النسبة يكون لكل مائة نفس من اهالى ايطاليا احد عشر مجلدا وسبعة أعشار المجلد ويوجد ببلاد النمسة مليونان واربعمائة وثمانية وثمانون مجلدا وبالنسبة للاهالى يكون لكل مائة نفس ستة مجلدات

وتسعة اعشار المجلد ويوجد بالبروسية مليونان وأربعون ألفا وأربعمائة وخمسون مجلدا فيكون لكل مائة نفس من أهاليها احدعشر مجلدا وفي الروسية ثمانمائة ألف واثنان وخمسون ألف مجلد فيكون لكل مائة من اهاليها مجلد واحد وثلاثة اعشار المجلد وفي البلجيك خمسمائة ألف وتسعة آلاف ومائة مجلد فيكون لكل مائة من الاهالي عشرة مجلدات واربعة اعشار المجلد وفي باواريا مليون ومائتان وثمانية وستون ألفا وخمسمائة مجلد فيكون لكل مائة من اهاليها ستة وعشرون مجلدا وخمسا المجلد كما يوجد بفرنسا أربعة ملايين وثمانمائة وتسعون الف مجلد فيكون لكل مائة من اهاليها احد عشر مجلدا وسبعة اعشار المجلد (فهي مثل ايطاليا قال) وبهذه النسب يظهر ان مملكة باواريا أكثر كتبا من غيرها بالنسبة الى عدد الاهالي وان كان الموجود بفرنسا لا يوجد بغيرها من الممالك وفي مدينة باريس وحدها ثلث العدد الموجود بمملكة فرنسا كلها ففي قاموس العلوم المؤلف في هذه السنين الاخيرة ان الخزانة السلطانية بباريس بها من الكتب على ما تحرر في سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف مليون كتاب مطبوع وثمانون ألفا بخط اليد وغاية ما كان بها وقت تأسيسها في سنة ثمانين وثلثمائة والف تسعمائة وعشرة مجلدات وصار بها في سنة سبع واربعين وخمسمائة وألف ألف وثمانمائة وتسعون مجلدا ثم في سنة اربعين وستمائة وألف صار مقدار ما بها ستة عشر ألفا وسبعمائة وستة واربعين مجلدا وفي سنة اربع وثمانين وستمائة وألف صار قدر

ما بها

مآبها خمسين ألفا وخمسمائة واثنين واربعين مجلدا وفى سنة خمس وسبعين وسبعمائة وألف صار بها مائة وخمسون ألف مجلد وفى سنة تسعين وسبعمائة وألف صار بها مائتا ألف مجلد واليوم بها مليون من الكتب المطبوعة وثمانون ألفا بخط اليد كما تقدم كما بها أربعون ألف خريطة فى فن الجغرافيا وعدد كثير من الرسائل ونحوها مما لا يطلق عليه اسم المجلد وبهذا التفاوت الكبير الواقع فى موادّ المعارف يعلم مقدار تأثير الحرّية فى الممالك فانا نرى الخزانة المذكورة فى مدّة اربعمائة وعشرة أعوام من مبتدا تأسيسها الذى هو سنة ثمانين وثلثمائة وألف الى سنة تسعين وسبعمائة والف لم يتحصل بها الا مائتا ألف مجلد ومن ذلك التاريخ الذى هو مبدأ الحرّية بفرنسا الى ثلاث وستين وثمانمائة وألف التى هى تمام اربع وسبعين سنة من ذلك الوقت ازداد فى الخزانة المذكورة ثمانمائة وثمانون الف مجلد دون ما لم يمكن حصره من الرسائل المشار اليها وعلى هذا يقاس سائر اسباب التمدّن ويوجد بباريس ثلاثون خزانة سوى الخزانة المذكورة متفاوتة فى الكبر كما توجد خزائن معتبرة فى سائر تخوت الممالك وأمّا بيان حسن ادارتها السبب لغاية سهولة الانتفاع بها فهو ان أماكن الخزائن المشار اليها تفتح كل يوم قدر خمس أوست ساعات ومنها ما يفتح بالليل ايضا قدر ثلاث ساعات وذلك فيما عدا يوم الاحد وأيام الاعياد التى لا تتجاوز مدتها شهرا فى السنة وايام التسريح للاستراحة وانما تفتح فى سائر الايام للطلبة الراغبين فى الاستفادة وأما الذين يأتون بقصد مجرد الاطلاع فلا يسوغ لهم ذلك الا فى يومين من الاسبوع

وللخزائن المشار اليها نظار وخدمة بقدر الكفاية وحولها بيوت للتعلم تسخن في الشتاء وهي محتوية على آلات الكتابة عدا الكاغد فيأتي به مريد الاستنساخ وطلب من المكاف الكتاب الذي يريده ببطاقة يدفعها اليه واذا احتاج الى أكثر من كتاب يبين السبب فيها فيدفعها لمكاف للخدمه فيحضر له في الحين ما طلب ويبين خروجه من ذلك المحل يسلم للمكاف ما اخذه من الكتب وهذه المنحه مبذولة لكل راغب سواء كان من الاهالي او الاجانب أمّا من كان من المؤلفين المشهورين فيسوغ له نقل الكتب للانتفاع بها في مهلة أقصاها عام اذا طلب ذلك بالكتابه وبين السبب الداعي لاخذ الكتاب وعند مضي المدّة اما أن يرجع ما اخذ أو يطلب تجديد التسويغ مدّة أخرى ومما يناسب سوقه هنا اعتناؤهم بأسباب تهذيب أبناء العائله المالكه وتوسيع دائرة معارفهم ولاشك ان ذلك من الاصول المعتبرة النافعه في ادارة المملكة غاية النفع

فنقول من عادتهم ان من يبلغ من أبناء العائلة سن التربيه ينتخب له رئيس تلك العائلة معلمين مهرة يعلمونه من فنون العلم ما يناسب حاله والمراد منه من كل ما يهذب اخلاقه ويوسع في المعارف نطاقه فاذا بلغ من التعلم أشده يوجه الى الممالك الاجنبيه لمشاهدة احوالها وطالعة سياستها وأحكامها ومالها من التقدّم في العمران وغيره ليتحقق بالمشاهدة ما بينها وبين بلاده من التفاوت ليعتبر اسباب ذلك وقت مباشرته لسياسة المملكة فيتجنب ما تأخرت به بلاده ان رأى غيرها اخبر امنها ويعتني بما تقدمت به ان رآه دونها فاذا بلغ من العمر نحو ثمان عشرة سنه يصير من أعضاء المجلس الاعلى يحضره ولا يكون له كلام فيه الا اذا بلغ من العمر خمسا

وعشرين

وعشرين سنة وفائدة ذلك التدرب على الامور السياسية ومزاولتها حتى يستكمل المملكة فيها معما يحصل له بذلك من الخبرة بطبقات رجال السياسة المتأكد معرفتها على من يتوشح للرئاسة التي هي اعظم الخطط البشرية واصعبها فيجب على متقلدها من الاستعداد والمعرفة بمقتضيات الاحوال المختلفة ما لا يجب على غيره لا سيما معرفة اهل الخبرة والمروءة والنجدة من رجال المملكة لينتخبهم للخطط المعتبرة مع التفطن لدسائس الحساد والمفسدين فان المطلوب من الملوك ليس هو مجرد فصل النوازل الشخصية كما هو مشاهد في بعض الممالك الاسلامية ولا مباشرة جزئيات الادارة التي يمكن اجراؤها بغيرهم من المتوظفين وانما المطلوب منهم النظر في كليات الامور من معرفة الرجال اللائقين بالخطط وامتحانهم وتعقبهم بالمراقبة لارشاد جاهلهم وزجر متجاهلهم وتفقد احوال الرعايا والاعانة على تكثير الصنائع والعلوم الموصلة الى تهذيب الاخلاق ونمو الارزاق والعناية بتنظيم العساكر البرية والبحرية وتحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة لحفظ الدين والوطن واصلاح احوال الخلطة السياسية والتجرية مع الدول الاجنبية بما يسمو به عز المملكة وثروتها الى غير ذلك من الكليات فان سعادة الممالك وشقاوتها في امورها الدنيوية انما تكون بقدر ما تيسر لملوكها من ذلك وبقدر ما لها من التنظيمات السياسية المؤسسة على العدل ومعرفتها واحترامها من رجالها المباشرين لها نقل عن المؤرخ بوليبوس اليوناني الذي تكلم على سياسة الامة الرومانية وما وقع بينها وبين اهل قرطاجنة من حروب انه قال في معرض الاستدلال على ان المباشر للامر يلزمه

أن يكون عارفا بأصوله ما معناه اذا كان المريض لا يرتجى له حصول العافية على يد طبيب يجهل نوع المرض والدواء المناسب له فكذلك المملكة لا يرجى خيرها واستقامتها اذا كان وزراؤها المباشرون يجهلون أصول سياستها وقوانين شرائعها وعاداتها ولا يخفى ان حصول خير المملكة اذا كان يمتنع بسبب الجهل بأصول السياسة فامتناعه اذا انضم لذلك عدم وجود تلك الاصول بالكلية أحرى وأولى لان السبب فى الحالة الاولى دائر بين الجهل والتجاهل وكلاهما أمر عارض تمكن ازالته بتبديل المباشرين أوارشاد جاهلهم والزام متجاهلهم بالجريان على الاصول المحفوظة أمّا اذا لم يوجد من تلك الاصول شئ يرجع اليه وسند مضبوط يقع التعويل عند الاشتباه عليه فان هاته الحالة يتسع فيها مجال الاغراض والشهوات من الآمر والمأمور وربما يؤل أمر الدولة الى الاضمحلال والدثور ولله عاقبة الامور هذا ولما تضمن ما أوردناه فى هذا المجال الاشارة الى أن الحرّية هى منشأ سعة نطاق العرفان والتمدّن بالممالك الاوربا وية رأينا من المتأكد بيان معنى الحرية عرفا لدفع ما عسى ان يقع من الالتباس فيها

فنقول ان لفظ الحرية يطلق فى عرفهم بازاء معنيين احدهما يسمى الحرية الشخصية وهو اطلاق تصرف الانسان فى ذاته وكسبه مع أمنه على نفسه وعرضه وماله ومساواته لابناء جنسه لدى الحكم بحيث ان الانسان لا يخشى هضيمة فى ذاته ولا فى سائر حقوقه ولا يحكم عليه بشئ لا تقتضيه قوانين البلاد المتقررة لدى المجالس وبالجملة فالقوانين تقيد الرعاة كما تقيد الرعية والحرية بهذا المعنى موجودة فى جميع الدول الاوربا وية الا فى الدولة

البابو يه

البابويه والدولة المسكربية لانهما مستبدتان وهما وان كانتا ذواتي احكام مقررة الا انها غير كافية لحفظ حقوق الامة لان نفوذها موقوف على ارادة الملك المعنى الثاني الحرية السياسية وهى تطلب الرعايا التداخل في السياسات الملكية والمباحثة فيما هو الاصلح للملكة على نحو ما اشير اليه بقول الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب رضي الله عنه من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه يعني انحرافا في سياسته للامة وسيرته معها ولما كان اعطاء الحرية بهذا المعنى لسائر الاهالي مظنة لتشتيت الآراء وحصول الهرج عدل عنه الى كون الاهالي ينتخبون طائفة من أهل المعرفة والمروءة تسمى عند الاوروباويين بمجلس نواب العامة وعندنا باهل الحل والعقد وان لم يكونوا منتخبين من الاهالي وذلك ان تغيير المنكر في شريعتنا من فروض الكفاية وفرض الكفاية اذا قام به البعض سقط الطلب به عن الباقين واذا تعينت للقيام به جماعة صار فرض عين عليهم بالخصوص ومجلس النواب المشار اليه موجود في سائر الممالك الاوروباوية ماعدا المملكتين المتقدم ذكرهما وله ان يتكلم بمحضر الوزراء وغيرهم من رجال الدولة بما يظهر له في سيرة الدولة من استحسان وضده وغير ذلك من المصالح العمومية كما يأتي وبقي وراء ذلك للعامة شيء آخر يسمى حرية المطبعة وهو أن لا يمنع احد منهم ان يكتب ما يظهر له من المصالح في الكتب والجرنالات التي تطلع عليها العامة أو يعرض ذلك على الدولة والمجالس ولو تضمن الاعتراض على سيرتها وفي هذا المقدار افترقت الممالك الاوروباوية فمنهم من ناله مع الاول فتمت له الحرية المطلقة ومنهم من ناله بشروط معتبرة عند الملوك التي لم ترخص لرعاياها ما تيسر لغيرها اعطاؤه من الحقوق وذلك ان احوال

الممالك متفاوتة بتفاوت مقاصد رعاياها فمنهم من لا ينازع الملوك الا لقصد
الحصول على مآربه وغايتهم معارضة الدولة ان حادت عن سواء السبيل
واستجلابها لما فيه صلاح المملكة وحينئذ تيسر للملوك اعطاء تمام الحرّية
لتوارد مقصد الراعى والرعية على المصلحة ومنهم من يظن به ان الباعث
له على المناضلة فرط التعصب والحمية حيث تفترق الرعايا احزابا كل حزب
يروم السياسة التى يراها أصلح للمملكة فى نظره كان يرى البعض أن
تكون الدولة جمهورية والبعض يختار أن يكون الملك فى عائلة غير التى
يختارها الآخر فينشأ عن ذلك ظن الدولة ان معارضة الاحزاب لها وان
كانت بحسب الظاهر لاتجاهها الى طرق المصلحة لكن الغرض منها
وراء ذلك وبذلك الظن الناشئ عما ذكر استباح الملوك الامتناع من
اعطاء تمام الحرّية الموصل لما اشير اليه * هذا وان من واجبات
الممالك التى تنال الحرية ولو خصوص الشخصية ان يقابلوا تلك النعمة
باظهار آثارها واستجناء ثمارها بتعاطى المعارف وأنواع الصناعات
الراجعة الى الاصول الاربعة الفلاحة والتجارة والاعمال البدنية
والفكرية وبهذه الاصول قوام السعادة الدنيوية المربية للهمة
الانسانية وكمال الحرية المؤسسة على العدل وحسن نظام الجماعة حتى
يكون المحترف مثلا آمنا من اغتصاب شئ من نتائج حرفته أو تعطيله فى بعض
احوال خدمته مما ينفع الناس كون ارضهم خصبة كريمة المنابت
اذا كان الباذر فيها لا يتحقق حصاد ما زرع ومن الذى يقدم حينئذ على
ازدراعها ولضعف أمل الناس فى كثير من أراضى آسيا وافريقية تجد
اخصب مزارعها بورا معطلة ولاشك ان العدوان على الاموال يقطع
الآمال وبقدر انقطاع الآمال تنقطع الاعمال الى أن يعم الاختلال
المفضى الى الاضمحلال

ومن

ومن أهم ما اجتناه الاوربأويون من دوحة الحرّية تسهيل المواصلة بالطرق الحديدية وتعاضد الجمعيات المتجرية والاقبال على تعلم الحرف والصنائع فبالطرق تستجلب نتائج البلدان القاصية قبل فوات ابان الانتفاع بها بعد ان كان جلبها متعذرا لطروء الفساد عليها فى الطريق أو لزيادة كرائها على اضعاف قيمتها وبالجمعيات تتسع دوائر رؤس الاموال فتأتى الارباح على قدرها وتتداول على المال الأيدى المحسنة لتنميته وبتعلم الحرف تكتسب الاموال الذريعة عن غير رأس مال وقد رأينا بالمشاهدة ان البلدان التى ارتقت الى أعلى درجات العمران هى التى تأسست بها عروق الحرّية والكونستيتوسيون المرادف للتنظيمات السياسية فاجتنى اهلها ثمارها بصرف الهمم الى مصالح دنياهم المشار الى بعضها ومن ثمرات الحرّية تمام القدرة على الادراة المتجرية فان الناس اذا فقدوا الامان على اموالهم يضطرون الى اخفائها فيتعذر عليهم تحريكها وبالجملة فالحرّية اذا فقدت من المملكة تنعدم منها الراحة والغنى ويستولى على اهلها الفقر والغلاء ويضعف ادراكهم وهممهم كما يشهد بذلك العقل والتجربة

وما أشرنا اليه من أن الشركات الجمعية من اسباب نمو النتائج المتجرية معقول مجرب فان قوة الاجتماع معهودة فى سائر الامور العادية وغيرها وكلما تمكن حب الاشتراك من قلوب اهل المملكة يشاهد نمو المكاسب فيها بالعيان ولذلك كثرت الجمعيات بأوربا فى سائر المعاملات المدنية والمتجرية وغيرها وتكاثرت الخدمات برا وبحرا

وكثرت مجامع العلوم وجمعيات المحسنين للضعفاء والمساكين وتكرر التعاون على استخراج المعادن واصطناع الخلج ومجارى المياه التى تصعد بها السفن الى الجبال ثم تنزل وطرق الحديد الى غير ذلك من المهمات التى لم تكن تحدث لولا وجود تلك الجمعيات فمن الذى كان يقدر وحده على اصطناع طريق حديد أو يخاطر بجميع ماله على فرض قدرته فى احداث مالم يتيسر لهم الا باشتراك مائتى أو ثلثمائة الف نفس بخلاف مخاطرة الواحد منهم بنزر يسير من ماله فانها غير مجحفة ولامستبعدة ثم ان الجمعية اذا كانت كبيرة وكان فيها فائدة عمومية فان الدولة قد تضمن لها ربحا معلوما فى المائة وادارة الجمعية تكون بيد أناس ينتخبون من ارباب الحصص لهم مزيد شهرة ومعرفة باجراء قانون الشركة وحفظ فوائدها وعند تمام السنة يقدمون حساب ذلك مع سائر متعلقات الادارة ويعينون الفوائد لارباب الحصص المشار اليهم ومن أعظم مآثر المشاركة شق خليج السويس وطريق الحديد الجامع بين طرفى البحر المحيط باميركا وثقب جبل آلب الكائن بين ايطاليا وفرنسا وقطع جبل البرينى بين فرنسا واسبانيا لمرور طريق الحديد بهما واحداث السرداب تحت وادى تامس بلندرة وعقد الجمعية المسماة بمجرى امبريال التى لها من السفن الجليلة ماهو مشاهد فى سائر البحور ووضع سلك التلغراف تحت البحر المحيط من انكلترة الى اميركا ونحو ذلك من الاعانات التى وجدها فى المشاركة رجال الدول وارباب الاختراع وحذاق المحترفين ومعلوم ان قوة المجموع أشد بكثير من قوى الجميع والناس اذا تعاضدوا على شئ توصلوا الى المقصود منه

ولو

ولوكان من اصعب الامور وكفى حجة لذلك الحادثان الهائلان وهما بنك فرنسا المشهور ومستعمرات الانكليز بالهند فان دولة انكلترة تملكت بجمعية من تجارها تسمى كومبانية الهند مسافة ثلاثة ملايين وخمسمائة ألف ميتر مربعا بها من السكان مائة وخمسة وثمانون مليون نفس واما بنك فرنسا فانه كان فى سنة ثمانمائة والف راس ماله ثلاثون مليون فرنك متجمعة من ثلاثين الف سهم وفى سنة ثمان واربعين وثمانمائة والف بلغ ما به من النقود احدا وتسعين مليون فرنك وبلغت كواغده المالية الرائجه بين الناس وفى المعاملة رواج المسكوك مقدار اثنين وخمسين واربعمائة مليون فرنك وفى اواخر سنة تسع واربعين وثمانمائة والف رخص من الدولة للبنك المذكور أن يزيد فى كواغده الرائجة الى أن تبلغ مقدار خمسة وعشرين وخمسمائة مليون فرنك وفى سنة سبع وخمسين وثمانمائة والف طلب البنك من الدولة تجديد المدّة الى تمام اربعين سنة مستقبلة فأذنت له بشرط تضعيف ما به من النقود حتى يصير تقريبا مائتى مليون فرنك فضاعف ذلك وتمت له الدولة مطلوبه ثم ان من تصرفات البنك عندهم صرف كواغد الحوالات التى تكون مصححة بخط ثلاثة اشخاص يعرف مجموعهم بالملاء الذى يناسب المعاملة بذلك المبلغ الذى تضمنته وقبض ما كاف البنك بقبضه من الحوالات لاربابها بأجر معلوم الا اذا كانت فى البلد الذى هو به فانه يفعل ذلك بلا عوض وقبول ودائع الناس لمجرد حفظها ومراسلة من يضع فيه مالا وتتميم المحاسبة معه واقراض المال لمن يريده اذا دفع رهنا ثقة غير الربع والعقار من كل ما يصير عينا بسهولة كسهام طرق الحديد والكواغد التى تباع من اقتراض الدول والسائك

ونحوها واعطاء كواغد الحوالات على نوّابه كما يحيل عليه النوّاب ايضا
وله خمسة وخمسون نائبا فى بلدان متفرقة واذا أردت أن تعرف كيفية
تدرجه الى هذه الحالة الراهنة وكيف اتسعت دائرة المعاملات بأوربا
فى هذه المدّة الاخيرة منذ ثلاثين سنة فاعلم ان البنك المذكور لم يكن به
من الكواغد فى سنة ثلاثين وثمانمائة والف الامقدار ثلثمائة وخمسين
مليون فرنك واليوم به من النقود ماتقدّم آنفا وهو مايقرب من مائتى
مليون فرنك ومن الكواغد الرائجة مما فى الصندوق من الحوالات
وغيرها مقدار ألف وستمائة مليون فرنك هذا مع ان البنك كان
فى الزمن السابق مستقلا بمعاملة الناس وأمّا الآن فقد زاحمه كثير من
الجمعيات كجمعية معاملة الصناع والتجار والكريدى المعينة لمعاملة
ارباب الاراضى والكريدى المعينة لمعاملة أرباب المنقولات
والجمعية العامّة وصندوق الودائع ونحوها من الجمعيات وبالجملة فاذا
قال القائل ان الملايين التى كانت الناس تتعامل بها سابقا صارت اليوم
ألوف ملايين فلايكون قوله بعيدا عن الصدق
ومن أسباب تقدّمهم العناية بمن اخترع شيأ لم يسبق اليه أو أجاد فى عمل
مفيد فمن ذلك ان بخوت الممالك المشار اليها مواضع معتبرة تعرض فيها
نتائج المملكة من نباتات وحيوانات ومصنوعات مستغربة ونحوها بعد
كل خمسة أعوام أو اقل او اكثر بحسب مقتضى حال المملكة وينعقد
لذلك مجمع مركب من العارفين بحقائق الاشياء لتأملوا فيها فان وجدوا
شيأ منها مستبدعا أعطى مخترعه قطعة من نحاس أو فضة أو ذهب تسمى
المداليا على شكل المسكوك مرسوما فى احد وجهيها صورة الملك
وفى الآخر مكان العرض وتاريخه وقد يستحق متقن صناعته نيشان
الافتخار

الافتخار فان قيل مافائدة هاته القطع التى أعلاها قطعه ذهب وهى لاتفى ببذل الجهد والمكابدة فى الاختراع فالجواب ان آخذ تلك القطع زيادة على الشهادة له بالكمال والتقدم فيما هو بصدده من الاعمال يتوصل بذلك الى مايؤمله من الرغبة فى سلعته المثمرة لتزيد مكاسبه لان سائر مايقع فى ذلك الجمع يطبع فى صحف الاخبار ليشيع فى الناس وربما أعطى المخترع مبلغا من المال وقد كان نابليون الاول اصدر أمرا باعطاء مليون افرنك لمن يحدث آلة تغزل الكتان وحدها ومن عناية ملوكهم بهذا الجمع ان الملك يحضره بنفسه مع رجال دولته حضورا رسميا عند فتح المعرض وعند انتهائه ويعلن للحاضرين بخطبة تتضمن مدح من أتى بشىء مستبدع لتتوفر الدواعى ويتنافس الناس فيما ينمى منافع الوطن واذا طلب احد المخترعين من الدولة ولو خارج المعرض قبل اشهار مخترعه الرخصة فى الاستبداد باصطناعه مدة لا يصطنعه غيره فيها الا باذنه تعطى له الرخصة فى ذلك بشرط أن لاتتجاوز المدة خمس عشرة سنة وان يدفع للدولة شيأ معلوما فى مقابلة الاختصاص وأما المؤلفات فانها تبقى ملكا لصاحبها مدة حياته ويختص بها ورثته بعد موته سبع سنين وفى بعض الممالك ثلاثين سنه ثم يرتفع التحجير المشار اليه ولولا هذا التخصيص ما انبعثت رغبات الناس الى الاختراع والتأليف لان المخترع يلزمه مالا يلزم المقتدى من اقتحام شاق الاعمال والمخاطرة بمصاريف التجريب واضاعة غالب الاوقات فى التدبير فاذا لم يعط هذا الاختصاص كانت أعماله المذكورة بلاعوض حيث شاركه غيره فى فائدتها ومن وجوه الترغيب عندهم ان من اخترع أمرا مهما تحصل

صورته من رخام أو نحاس ويوضع فى الاماكن المعدّة لاجتماع الناس أو يسمى باسمه ما يتفق حدوثه فى تلك المدة من قنطرة أو طريق جديد أو نحو ذلك ليبقى بذلك ذكره وحاصل سياستهم فى هذا الشان اعتبار ما حقه ان لا ينسى بأى نوع يقتضيه حاله من وجوه الاعتبار كما اعتبرت ذلك الدولة العلية عند تأسيسها سوقا بدار الخلافة لعرض نتائج المملكة وقد وقع العرض المذكور فى سنة ثمانين ومائتين والف هجرية وفى سنة احدى وخمسين وثمانمائة والف وقع بانكلترة للعرض المشار اليه ترتيب عجيب وهو انهم أسسوا محلا فى غاية الاتساع والضخامة وأعدوه لعرض نتائج الممالك من سائر المعمور ثم وقع مثله فى فرنسا سنة خمس وخمسين وثمانمائة والف ثم تكرر بانكلترة ثم أعيد فى فرنسا بمزيد اعتناء سنه سبع وستين وثمانمائة والف كل ذلك ليقتدى المتأخر بالمتقدم فى الصناعات ونحوها مع ما يحصل لتجار تلك المملكة من الاموال الغزيرة الناشئة عن معاملة ملايين من النفوس الاجانب الوافدين عليها لذلك وادارة هذه المجامع وتعيين المنازل لارباب الصنائع والبضائع وتعيين من يستحق الجزاء ونحو ذلك موكولة لنظر مجلس مرؤس بأمير من البيت الملكى اظهارا لمزيد الاعتبار

وقد آن ان نبين اصول تنظيماتهم السياسية التى هى اساس التمدن والثروة المشار الى بعض آثارهما آنفا فنقول اعلم ان الامم الاورباوية لما ثبت عندهم بالتجارب ان اطلاق ايدى الملوك ورجال دولهم بالتصرف فى سياسة المملكة دون قيد مجلبة للظلم الناشئ عنه خراب الممالك حسبما تحققوا ذلك بالاطلاع على اسباب التقدم والتأخر فى الامم

الماضية

الماضية جزموا بلزوم مشاركة أهل الحل والعقد الآن في بيانهم في كليات السياسة مع جعل المسؤلية في ادارة المملكة على الوزراء المباشرين وبلزوم تأسيس القوانين المتنوعة عندهم الى نوعين أحدهما قوانين الحقوق المرعية بين الدولة والرعية والثاني قوانين حقوق الاهالي فيما بينهم فرجع الاول الى معرفة ما لصاحب الدولة وما عليه ويندرج تحته امور منها حرية العامة الكافلة بضمانة حقوقهم ومنها تعيين اصول تصرفات الدولة جمهورية كانت أو ملوكية كتنفيذ القوانين الحكمية وادارة السياسة الداخلية والخارجية كعمل الحرب وعقد شروط الصلح والتجارة وتعيين الوظائف ونصب المتوظفين من الوزراء وغيرهم وتأخير من لم تكن وظيفته مؤبدة (وانما عبرنا بالتأخير لان عزل المتوظف عن الخطة التي افنى اطيب عمره في خدمة المملكة لنيلها عزلا يقتضي طرحه من خدمتها بالمرة لا يكون الا بذنب يثبت لدى مجالس الحكم بمقتضى القوانين) وكذا صرف الجباي لما عينت له الى غير ذلك من ادارة المملكة بما لا يخرج عن مقاصد قوانينها كل ذلك من حقوق صاحب الدولة باعانة وزرائه وتأسيس اصول هذا النوع يكون في دولة فرنسا بموافقة غالب رشداء أهل المملكة المتصرفين في حقوقهم الخصوصية والسياسية وفي غيرها بزاد على الشرط المذكور اما العلم أو ملك عليه مبلغ محدود من الاداء أو الوجاهة المسماة عندهم بالنوبليس وموافقتهم اما بأنفسهم أو بواسطة وكلاء ينتخبونهم لذلك والنوع الثاني القوانين المحررة لفصل نوازل السكان والتسوية بينهم في الجباي والمنع بحسب المكاسب والاستحقاق الى غير ذلك من أحوالهم الداخلية وتأسيس هذا النوع

أو تبديله بما هو أليق بالحال يكون بموافقة المجلسين أعنى المجلس الاعلى المركب من أمراء العائلة الملكية وممن ينتخبه الملك من اعيان المملكة مؤبدا وظيفته ومجلس الوكلاء المركب ممن ينتخبهم الاهالى للمناضلة عن حقوقهم والاحتساب على الدولة فأهل هذين المجلسين هم أهل الحل والعقد عندهم فكل ما وافقوا عليه مما لا يخالف تلك الاصول اللازم فيها مشاركة العامة يصير من شرائع المملكة

واما مسؤلية الوزراء فمعناها ان يكونوا تحت احتساب مجلس الوكلاء مباشرة كما هو موجود فى سائر الممالك الكونستيتوسيونية ماعدا الدولة الفرنساوية اليوم فان وزراءها مسؤلون للملك وهو مسؤل للمجلس ومن آثار المسؤلية المذكورة ان أمور الادارة المتقدم انها من حقوق صاحب الدولة يتوقف انجازها على اجازة الوزراء بحيث لا يبرم أمرا منها حتى يستشيرهم وانهم لا يمكنهم البقاء فى الخدمة الا اذا كان غالب أعضاء مجلس الوكلاء موافقا فى سياستهم فعلم ان المجلسين المذكورين لا يتداخلان فى تفاصيل الادارة وانما دأبهما وضع القوانين وحفظها بالاحتساب على الدولة ومن اعمالها عند الاجتماع النظر واعطاء الرأى فيما يعرض على كل منهما من النوازل المهمة الداخلية والخارجية وسؤال الوزراء عما يظهر لهما متى شاء والقدح فى سيرتهم خصوصا مجلس الوكلاء وعلى الوزراء الجواب عن جميع ذلك وتقع المجادلة بالمجلس علنا بين القادح والمدافع ليتضح الحال ويظهر المصيب من المخطى فاذا اتفق غالب مجلس الوكلاء على تصويب سياسة الوزراء بعد التأمل فى أدلة القادح والمدافع تيسر للوزراء البقاء فى الخدمة وتحصل حينئذ

فائدة

فائدة الدولة والمملكة أمّا الدولة فليكون المجلس لا يتوقف بعد ذلك
في أن يسوغ لها أخذ ما تقتضيه المصلحة من المال والرجال لان من وافق
على المصلحة وعلى حسن سيرة مباشرها لا يمتنع من اعطاء ما يلزم لانجازها
وأمّا فائدة المملكة فبثبوت استقامة سيرة المباشرين لمصالحها فيهون
عليها صرف أموالها ودماء ابنائها حيث كان فيما يعود بالنفع عليها
وبمثل هذا يستقيم حال الدولة والمملكة ولو كان الملك أسير الشهوات
أو ضعيف الرأى كما تقدم وأمّا اذا اتفق غالب المجلس على عدم
استحسان سياسة الوزراء فيجب على الملك عند ذلك احد أمرين
اما تبديل الوزراء المشار اليهم أو حل مجلس الوكلاء على أن
يعيد الاهالى الانتخاب فى مدة معلومة فاذا انتخبوا من يكون اشهر
باللين والمساعدة للدولة دل ذلك على رضاهم بسياستها فيبقى الوزراء
على خططهم وأمّا اذا انتخبوا الاوّلين او من يكون مثلهم فى الشدّة
فيستدل بذلك على عدم رضاهم بها ويجب حينئذ خروج الوزراء
من الخدمة وتعويضهم بمن سياسته ترضى المجلس وللمجلس المذكور
أن يدعى الخيانة على احد الوزراء او مجموعهم اذا رأى أدلة ذلك
وتكون نازلة تفصل بالمجلس الاعلى وظاهر ان الوزراء المشار اليهم
كما تشدد عليهم القوانين المسؤلية عن تصرفاتهم تمنع التعدّى عليهم
فى النفس والعرض والمال فيتيسر للنجيب الامين منهم اجراء الامور على
مواقع المصلحة والفوز بما يستعقبه ذلك من جميل الثناء ولمن اتصف
بالامانة دون النجابة الخروج بالسلامة لا له ولا عليه وبما تقدم يعلم ان
سلطة المجلسين تتحد تارة وتفترق أخرى اذ لكل منهما اعمال

شخصه واعمال يشارك فيها الآخر غير أن المعتبر فى تأسيس القوانين سيما المتعلقة بالجبايى والقوّة العسكرية وفى الاحتساب على الدولة واستحسان سياسة الوزراء وضدّه اللذين ينبني عليهما خروجهم او بقاؤهم فى الخطة هو ما يتفق عليه غالب مجلس الوكلاء حسبما أشير اليه قريبا كما ان اجراء القوانين المذكورة يتوقف على موافقة المجلس الاعلى على كونها غير مخالفة لاصول الكونستيتوسيون قال فبتقرر ما ذكر يعلم ايضا ان صاحب الدولة عندهم مضطر الى موافقة ارادة المجلس التى هى فى الحقيقة ارادة اهل المملكة ولا يخفى ما يتبادر فيه من التشديدات التى تأباها نفوس غير المنصفين من الامراء والوزراء لكن من بحث الامم الاورباوية ونجاح مساعيها الدنيوية أن عرف ملوكها ووزراؤها ما ينشأ عن ذلك من الفوائد الجمة التى منها كف ايدى المأمورين عن التعدى على الرعية ومنها سهولة اعتبار المكاسب فى توزيع الاداء على الاهالى بحيث لا ينقص من رؤس اموالهم اذ لا يتم مع ذلك نمو العمران ومنها ان الرعايا اذا وافق وكلاؤها على اصل المصلحة فانها تنشرح باعطاء ما يلزم لانجازها كما تقدم ومنها ان المفسد لا يجد مساغا للقدح فى تصرفات الدولة بقصد التنفير منها وتغيير القلوب عليها ومنها ان الوالى المستبد ولو كان عادلا لا يمكنه الاطلاع على احوال مملكته الا بواسطة الوزراء وغيرهم من المتوظفين الذين أثبتت التجارب ان اكثرهم لا يعرفون الولاة الا بما تقتضيه فوائدهم فيتوصلون بالنصائح العمومية الى اغراضهم الشخصية خصوصا من يشير منهم على الملوك بالاستبداد لماله فى ذلك من المعونة على حصول استبداده هو ايضا فى مأموريته على انه يمكن لنا

ان

أن نقول ان المأمورين فى دولة الاستبداد كل واحد منهم مستبد على قدر حال مأموريته فلهذه الفوائد ونحوها تجشم الملوك والوزراء ما فى التقييد فى مبدأ الامر من المرارة نظرا لما يستعقبه من لذة السطوة والحضارة وقد صح حدسهم فى ذلك بما لم نزل نشاهده من تقدمهم فى العلوم والصناعات واستخراج كنوز الارض بالزراعة والبحث عن المعادن وحصولهم من امثال هذه المذكورات الناتجة من اتحاد الراعى والرعية على ماقوى حاميتهم فى البر والبحر حتى هابتهم الامم واستولوا على ممالك كثيرة خارجة عن قسم اوربا ونالوا من نفوذ الكلمة فى غير ممالكهم ماهو مشاهد وصاروا فى التصرفات الدنيوية قدوة لغيرهم وماذاك الا باجراء القوانين السياسية التى مدارها على ماتقتضيه الحرية المشروحة سابقا من حفظ حقوق الانسان فى نفسه وعرضه وماله والاتحاد فى جلب المصالح ودرء المفاسد بمراعاة العادات والامكنة والازمنة التى تعتبر شريعتنا اختلاف احكامها اعتبارا كليا ولتلك القوانين فى الممالك الاوربا وية من الاحترام واستمرار النفوذ برعاية اهل الحل والعقد مايحمى حقوق الرعية وحريتها ويؤمن الضعيف من بطش القوى ويدفع عن المظلوم سلطة الظالم مثل ما كان لامة الفرس التى طال ملكها ودام حديث عدلها الى الآن وشهد لبعض ملوكها بالعدل سيدنا الصادق صلى الله عليه وسلم ومثل ما كان لامة الرومان التى استولت على غالب جهات المعمور حتى كان يقال لها فى ذلك الوقت كرسى ممالك الارض ومثل ما كان لامة اليونان التى لما استولى العدو على بعض بلدانهم ولزمهم الخروج منها سألوا حكيما لهم أين تصلح السكنى فقال لهم فى بلد تكون الشريعة

فيه أقوى من السلطان الى غير ذلك من الامم التي ما بلغت غاية الاستقامة الا باحترام قوانين احكامها المؤسسة على العدل السياسي كما ان عدم احترامها كان منشأ رجوعهم القهقري ولا يتوهم ان ذلك بسبب بركة في شرائع الامم المذكورة اذ الواقع انها قوانين عقلية مبنية على مراعاة الوازع الدنيوي فاذا انضم الى ذلك وجود البركة والحرمة الالهية كما هو حال شريعتنا المطهرة كانت المخالفة معهما تستحقه من النكال الاخروي أجلب للانحطاط الدنيوي ومن تتبع تواريخ الامم المشار اليها وتواريخ الامة الاسلامية رأى ذلك عيانا

هذا وان الضرورة قد تدعو الى تفويض ادارة المملكة لشخص واحد مستبد لكن لغاية محدودة وبشروط عندهم معهودة وذلك ان من أصول السياسة المأثورة عن الامة الرومانية أن المملكة اذا اشتد الخطر عليها اما بكثرة الافساد الداخلي أو بظهور مخائل التغلب عليها من الخارجي وصعب حسم مواد ذلك بالاعمال القانونيه لمكان تعدد الانظار المتساوية وما عسى يقتضي الترجيح بينها من طول المفاوضة المفضي الى عدم قمع المفسدين ومدافعة المتسلط الاجنبي او الى تأخير ذلك عن وقت الحاجة فعند ذلك يطلب مجلس السناتو من أحد رئيسي الدولة الجمهورية ان يختار من اعيان رجال المملكة من يسميه باسم دكتتور اي مطلق التصرف تفوض اليه ادارة المملكه بما يظهر له بمقتضى اجتهاده كعمل الحرب والصلح ونفي أو قتل من يراه من اهل الفساد والخيانة او عقابه بأخذ المال او غير ذلك مما يقتضيه الحال ولا يتوقف نفوذ حكمه على موافقة أحد الا في امر الجبايات فان اعمالها فيها موقوفة على موافقة مجلس السناتو وكل من له مأمورية عسكرية او سياسيه فهو ملزم بتنفيذ أوامره وكذلك سائر الاهالي ولا يتجاوز التفويض المذكور

المذكور ستة اشهر ولو كان السبب باقيا الا بتفويض جديد كما انه اذا
ارتفع السبب قبل انتهاء المدة فان التفويض ينتهي وترجع الادارة الى
قوانينها وعند خروج المفوض له تتوجه اليه المسؤلية اللازمة لكل من
يخرج من خطة معتبرة عندهم فيطلب منه بيان السبب الداعي الى
ما تصرف به من قتل وحرب وصلح وأخذ مال ونحو ذلك بمحضر أهل
رومية المجتمعين لذلك فان صوبوا تعليله استوجب شكرهم وثناءهم
على سيرته في موكب مخصوص وان كانت الاخرى يحكم عليه بما
يناسب سوء تصرفه واكثر ما يكون ذلك بالنفي من التخت أو اداء المال
ثم ان الاوربيين صاروا في المدة الاخيرة يطلقون اسم الدكتور
على كل وال مطلق التصرف سواء كان محدودا بمدة أم لا كالجنرال
كرونول بانكلترة ونابوليون الاول بفرنسا وغيرهما ممن كان
استبداده من آثار حيرة تثور بالمملكه يشتهر فيها المشار اليه بمزيد
الدراية والحزم فينصب نفسه منصب الدكتور وتتعرف به العامة
بقصد اخماد الحيرة وتخليص المملكه من مواقع الخطر واستصلاح حالها
بتهذيب جفاة الاهالي وتقويم اعوجاجهم لكنهم لا يحصلون غالبا على
هذا المقصود بل يتوصل المنتصب بذلك الى اغتنام الفرصة لاستمرار
استبداده اما لاستمرار اسباب الحيرة وضعفه عن ازالتها وأما لكون
المنتصب أزالها بحسن تدبير وقع من الاهالي موقع الاعجاب حتى
اكتسب بذلك مزيد احترام عندهم أسس عليه سلطته وايثار نفوذ
ارادته على اجراء قوانين المملكه مرجحا بذلك حظ نفسه على المصالح
العامة لكن ذلك مع ما يفضي اليه من المضار الاستبدادية لا ينكر
أن المصير اليه واجب عند قيام سببه لاستبقاء راحة المملكه كما يشير

اليه قول الحكيم مونتسكيو الفرنساوى انا بمقتضى ما نسمعه من اعمال الامم التى كانت حاصلة على الحرية التامة نرى ان المحال قد يقتضى ارخاء الستر على الحرية ارخاء وقتيا قلت وحيث كان التفويض المشار اليه انما ساغ للضرورة وما أبيح للضرورة يتقدر بقدرها فلاجرم يجب الرجوع الى كشف حجب الحرية بعد زوال السبب هذا وقد قررنا فى هذه المقدمة من الادلة الناهضة الواضحة على ما فى التصرفات السياسية المضبوطة بالتنظيمات من المصالح العامة والخاصة التى يشهد العيان بآثارها الناجحة فى الممالك وما فى التصرفات السياسية الغير المضبوطة بها من المضار الفادحة ما تقر به عين النصوح المحب لخير الوطن وانى لاأزال أقول ان ترتيب التنظيمات المشار اليها من لوازم وقتنا هذا كما أقول صدعا بالحق ان كل متوظف لايرى الاحتساب عليه فى وظيفته فهو عديم الامانة والنصيحة لدولته و وطنه ولوكان معتمدا فى ذلك على ماقد يجده فى نفسه من حب الانصاف لانه تسبب فيما يتعقب الخراب بامتناعه من المراقبة والاحتساب حيث ان اكثر المتوظفين انما يباشر خدمته على مقتضى شهواته ومصالحه الخصوصية مؤثرا لها على المصالح الوطنية العمومية فهب انه كان مجبولا على حب الانصاف فان غيره لايفعل مثله الا بمراقبة الاحتساب ولانه لوكان منصفا فى الواقع ماضره الاحتساب حتى يمتنع منه بل الالائق بحاله من الحث عليه اذ به تظهر براءته ظهورا لايحصل بدون ذلك وفيما أودعناه فى غضون هاته المقدمة للمتبصرين كفايه والتوفيق بيد الله المحمود فى كل بداءة ونهايه

(الخاتمة)

(الخاتمه)

يقول جامع هذا الكتاب ألهمه الله الى الرشد والصواب هذا ماتيسر لنا جمعه بحول الله من تصاريف الممالك الاسلاميه والاورباويه مستعينين في تهذيب ألفاظه ببعض أبناء الوطن والمظنون بمن رمقه بعين الانصاف ان يرى فيه افادة كافية في معرفة المهم من احوال تلك الامم وان يغتفر في جنب ذلك مالايخلو عنه كلام مترجم من قلق العبارة وعدم الانسجام سيما وغالب ماترجمناه يشتمل على مدلولات مستحدثه لم توضع لها ألفاظ عربيه حتى اناقد نلتجئ بذلك الى نقل اللفظ بحاله اتكالا على اشتهاره ولو عند خصوص المستعملين لحوادث الوقت ولا نمنع أن يكون منشأ ذلك عدم اطلاعنا على الرديف العربي وبالجملة فاغضاء ذوي العرفان مأمول لمثلنا ممن لم يحرزه على موقف الاستهداف لا القيام بواجب النصيح لله ورسوله ولائمة المسلمين وعامتهم وبناء على كون ذلك مصدر التأليف نعلن لمن عسى أن يعثر فيه على شيء من الهفوات بأنا نرى له المزية علينا في الارشاد الى اصلاحه بما يكون أعون في استجلاب النصيحه مستوجبا بذلك ثناءنا ثم الثواب من رب العباد نجز هذا التأليف باعانة الله تعالى عشية يوم الاثنين عاشر جمادى الاولى سنة اربع وثمانين ومائتين وألف

(الخاتمة الجديده)

لك اللهم الحمد والمنه * اذ جعلت المعارف ابواب الجنه * نتصل بها الى التفاخر بحمدك * والتباهي في تسبيحك ومجدك * باحسن ماتحلت به ابكار المعاني في النحور * وابهى ماتضوعت به افواه

الأقلام في السطور * وبعد فيقول الفقير الى مولاه * المستمنح فضله وعطاه * سليم الياس حموى الدمشقى مولدا * المصرى وطنا وقطنا * لما رأيت مقدمة كتاب اقوم المسالك * فى احوال الممالك * الذى جمع فاوعى * واشتمل على مهمات الامور * معالم نر لمثله جمعا * من اجل ما صنف * وابهى ما حرر والف * جديرة ان تزدان بها المكاتب * وتكون تلاوتها للعموم كالمحتم الواجب * كيف لا وهى نفثه يراعة رب الحكم الحائز شرف المجد والقلم * المشتهر بفضله اشتهار الشمس فى رابعة النهار * والذى لا يدرك شاؤه فى ذلك المضمار * صاحب الدولة والعطوفة خير الدين باشا الذى تفتخر به المعالى والرتب * ويرتفع به منار الفضل والادب * ولنا فيما تولاه من المناصب الرفيعة كالوزارة فى الدولة التونسيه والصدارة فى الدولة العليه دلائل * قال لسان حالها جاء الحق وزهق الباطل * وقد تم طبعها وزهافى قالب الحسن وضعها * فى مطبعتنا الكائنة فى ملك دمر بكر بجوار مجلس الصحة المشهورة بمطبعة جريدة الاسكندريه * حرسها الله تعالى من كل آفة وبليه * واذ كان لا يحتاج النهار الى دليل * اقتصرنا عن طبع ما جاءت به فرسان البلاغة من التقاريظ التى يعز انظيرها المثيل كيف لا واولئك الفرسان ممن احتاطوا دائرة المعارف حول كل تليد وطارف حتى حنت اليهم الاداب اعناقها * والقت اليهم المعارف مقاليدها * فلا بدع اذا استنزلوا الشهب فى اقلامهم * وارتفع منار الفضل من اعلامهم فلولا ضيق الوقت لحلينا جيدها بتلك التقاريظ الوافرة لتعميم الفائدة * [illegible] العائده * نسأل الله تعالى ان يعيننا على خدمة الاوطان لنبذل [illegible] ما فى الامكان * اذ اننا معتصمون بحبله المتين على الدوام [illegible] الاتكال فى البدء والختام